

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

دار مجيدين
للطباعة والنشر والتوزيع

٤٢ طريق النصر (الأوتوستراد)

وحدة رقم ١ عمارات امتداد رمسيس ٢

مدينة نصر - القاهرة - ت. ٣٦٣١٤١٢ (٢٠٢)

المطابع، مدينة العبور - المجمع الصناعي - وحدة ٢٠٥

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/١١٢٦٠

الترقيم الدولي: 5-16-6076-977

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - : أن النبي ﷺ قال في حجة الوداع:

«نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها، فرب حامل فقه
ليس بفقيه، ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مؤمن،
إخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين،
ولزوم جماعتهم؛ فإن دعاءهم محيط من ورائهم، اهـ .
[رواه البزار بإسناد حسن]

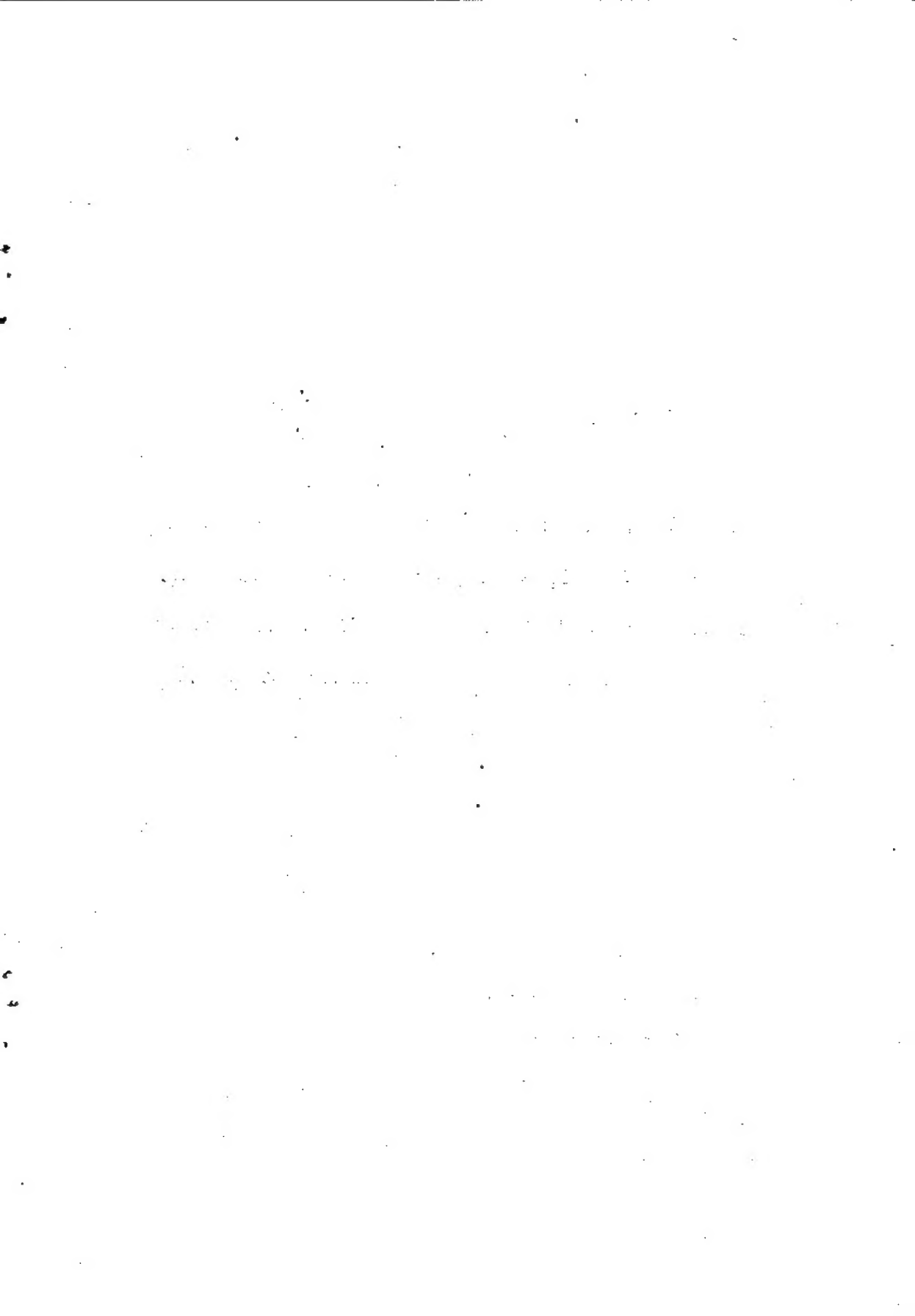
المؤلف

أ.د / محمد محمد محمد سالم محيسن

بعضر الله له ولوالديه وخزيلة والمعلمين

المدينة المنورة، الثلاثاء ١٢ رجب ١٤٠١ هـ

الخامس من مايو ١٩٨١ م



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائل:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

[فصلت: ٣٣]

والصلاة والسلام على نبينا «محمد» الذي صح عنه في الحديث الذي رواه: أنس بن مالك (ت ٩١ هـ - رضى الله عنه): أن رسول الله ﷺ قال: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، فارقها والله راض عنه» اهـ.
[رواه ابن ماجه، والحاكم]

وبعد:

فهذا كتاب ضمته بعض الوصايا والمواعظ رجاء أن يستفيد به المسلمون والمسلمات .
وقد جعلته تحت عنوان:

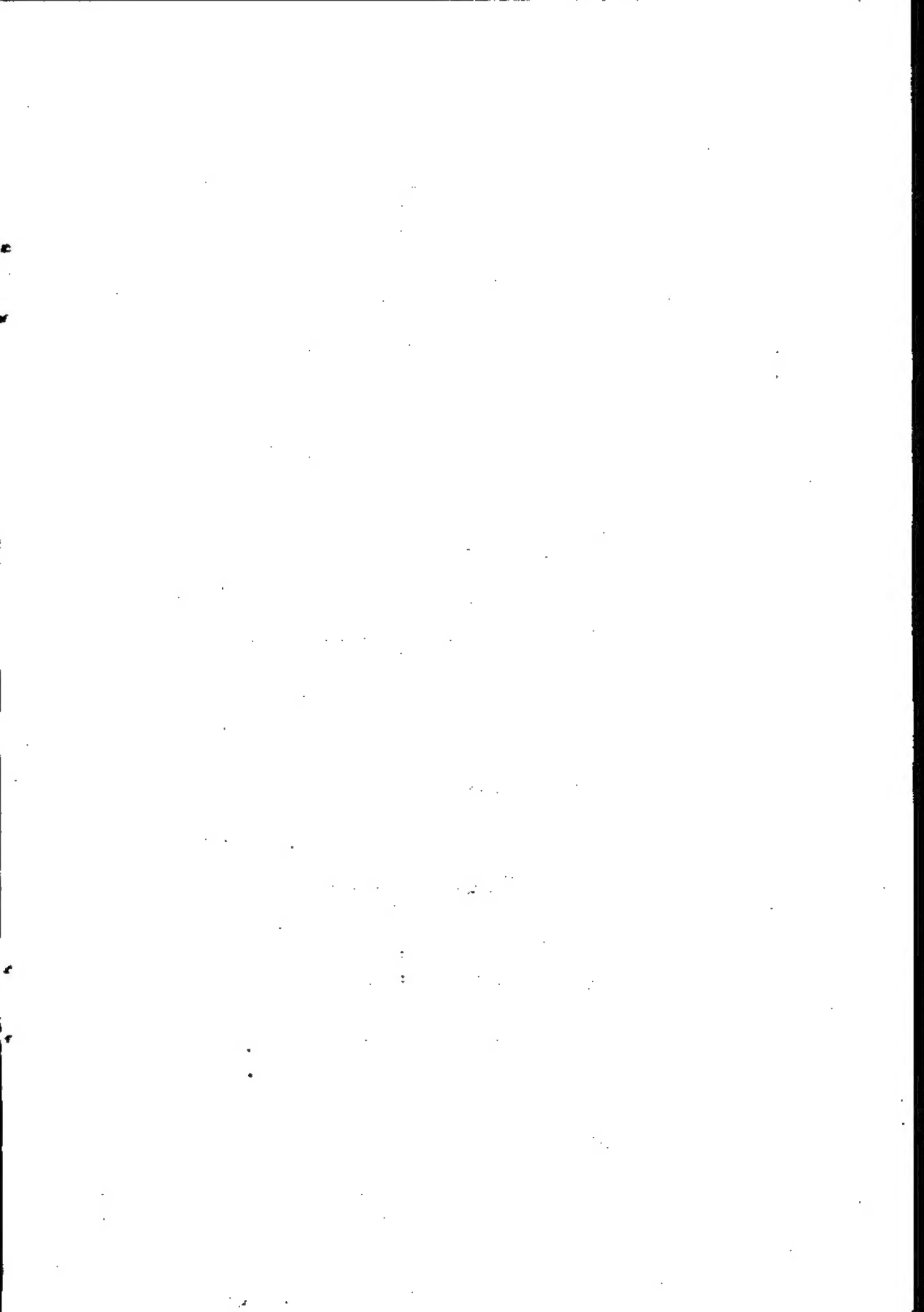
وصايا ومواعظ في ضوء الكتاب والسنة

أسأل الله الحي القيوم ذا الجلال والإكرام أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفعنى به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .
وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المؤلف

أ.د / محمد سالم محيسن

غفر الله له ولوالديه آمين

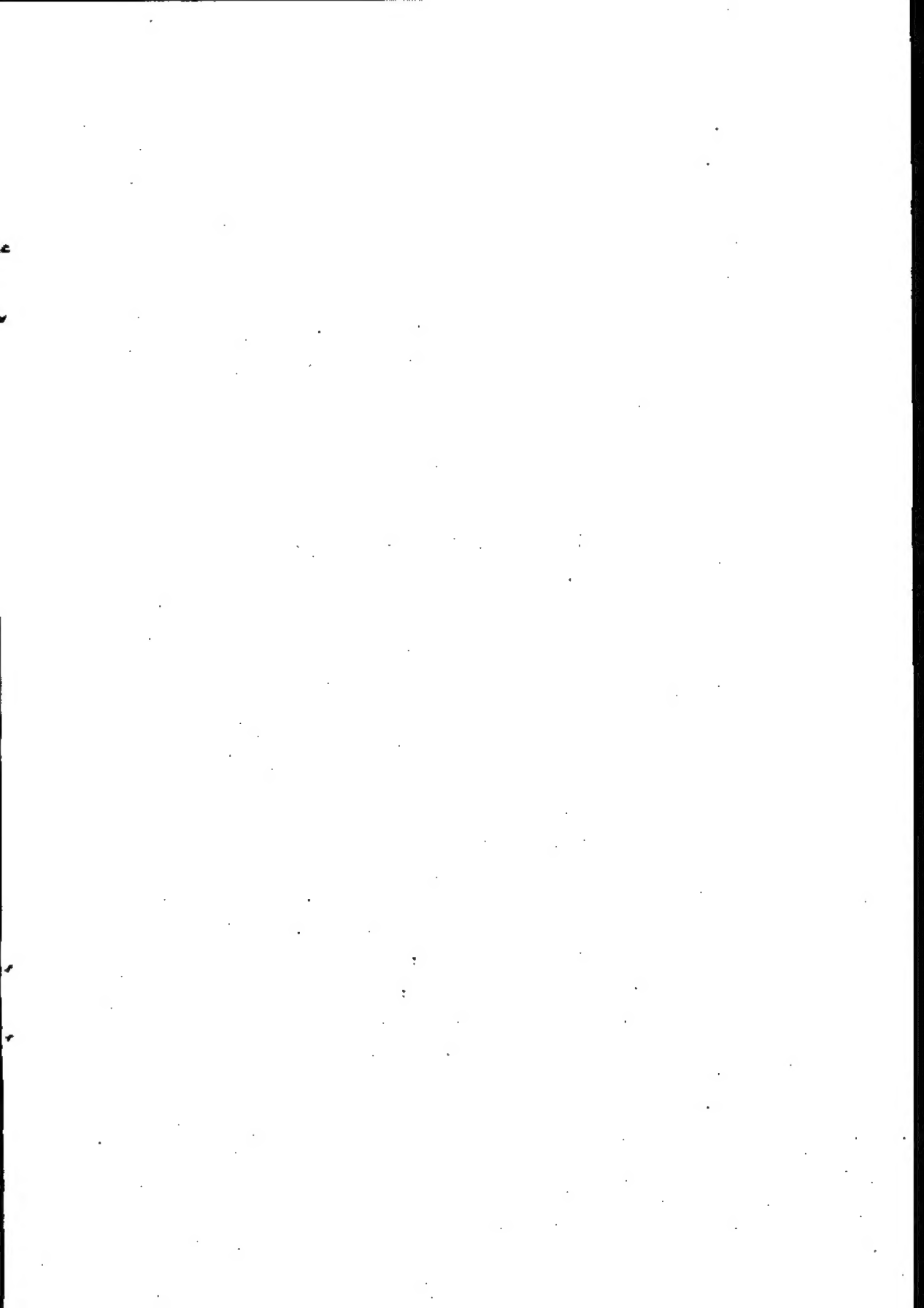


منهج التأليف

ضمّنتُ كتابي هذا عدداً من الموضوعات العلمية في ضوء الكتاب والسنة.

أسأل الله الحيّ القيوم ذا الجلال والإكرام أن يشرح صدرى، ويعيننى على خدمة كتابه، وسنة نبيه «محمد» ﷺ، إنه سميع مجيب.

وصلّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الموضوع
الأول

الوصايا الربانية والنبوية

وقد اخترت منها الوصايا الآتية:

الوصايا الربانية:

وهي التي جاءت في القرآن: فمن ذلك الوصايا العشر التي جاءت في سورة الأنعام في ثلاث آيات اشتملت على الأمر بتوحيد الله - تعالى -، والبر بالوالدين، والنهي عن قتل الأولاد، وعدم ارتكاب الفواحش، وعدم قتل النفس التي حرم الله، والنهي عن أكل مال اليتيم، والأمر بإيفاء المكيال والميزان، والوفاء بالعهد، والأمر باتباع الصراط المستقيم.

وفي ذلك يقول الله - تعالى -: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَنْتَرِكُوا عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

ومن ذلك: الوصايا التي جاءت في سورة الإسراء في سبع عشرة آية اشتملت على الأمر بتوحيد الله - سبحانه وتعالى -، وعلى بر الوالدين والإحسان إليهما، وعلى العطف على ذوى القربى، والمسكين، وابن السبيل، والنهي عن التبذير، والبخل، وقتل الأولاد خشية الفقر، والنهي عن الاقتراب من الزنا، والنهي عن قتل النفس، والنهي عن التعدي على مال اليتيم، والحث على الوفاء بالعهد، والأمر بإيفاء الكيل والميزان.

وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُومًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْفَ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَّنِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا

﴿٢٥﴾ وَأَتِذَا الْقُرْتَبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَّسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ [الإسراء: ٢٢-٣٨].

ومن ذلك: الوصايا التي وجهها القمان لابنه في سبع آيات، وهي قول الله - تعالى :-
﴿وَإِذْ قَالَ لِقَمَانُ لِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حِمْلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّالَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَغِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٣-١٩].

- والله أعلم -

الوصايا النبوية:

وهي التي أوصى بها الرسول ﷺ صحابته (رضوان الله عليهم)، وأمته من بعده؛ لتكون منهمجاً لهم في الترية، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، بل في كل شأن من شئون الحياة. وقد وردت هذه الوصايا في أحاديث كثيرة اقتبستُ منهما الأحاديث الآتية:

١- عن العرياض بن سارية - رضى الله عنه - قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرقت منها العيون، ووجلّت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودّع، فماذا تعهد إلينا؟ قال:

«أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبداً حَبَشياً، فإنه من يعش منكم بعدى فسيروا اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها، وعضّوا عليها بالتواجد، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» اهـ^(١).

٢- وعن عبد الله بن عمر (رضى الله عنهما - ت ٧٣هـ) قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك... اهـ^(٢).

٣- وعن عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما - ت ٦٨هـ) قال: كنت خلف النبي ﷺ فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم بأن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف» اهـ^(٣).

٤- وعن سهل بن سعيد الساعدي - رضى الله عنه - قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: دلني على عمل إذا عملته أحببني الله، وأحبنى الناس فقال: «أزهد في الدنيا يحبك الله، وأزهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس» اهـ^(٤).

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم ٤٦٠٧، والترمذي في كتاب العلم برقم ٢٦٧٨.

(٢) رواه البخاري برقم ٦٤١٦، والبيهقي في السنن ح ٣٦٩. (٣) رواه الترمذي في السنن برقم ٢٥١٦.

(٤) رواه ابن ماجه برقم ٤١٠٢، والطبراني في المعجم الكبير برقم ٥٩٧٢.

٥- وعن أبي هريرة (رضي الله عنه - ت ٥٥٨ هـ) قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباعضوا، ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم: لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره، التقوى هاهنا ويشير إلى صدره - ثلاث مرات -، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه» اهـ^(٢).

٦- وعن أبي ذر (رضي الله عنه - ت ٣٢ هـ) عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه - عز وجل - قال: «يا عبادي كلكم ضالّ إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» اهـ^(٢).

-والله أعلم-

(١) رواه مسلم برقم / ٢٥٧٧.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم / ٢٥٦٤.

الموضوع
القائى

وصايا الصحابة - رضى الله عنهم -

الأولى: وصية أبى بكر الصديق لعمر ابن الخطاب - رضى الله عنهما -

حينما استخلفه عند حضور أجله، وقد جاء فيها:

إنى مستخلفك من بعدى، وموصيك بتقوى الله، وإن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا، وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلًا، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفًا.

إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئاتهم، فإن ذكرتهم قلت: إنى أخاف ألا أكون من هؤلاء، وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم، ولم يذكر حسناتهم، فإذا ذكرتهم قلت إنى لأرجو ألا أكون من هؤلاء، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب؛ ليكون العبد راغبًا راجبًا، ولا يتمنى على الله غير الحق، ولا يلقى بيده إلى التهلكة، فإذا حفظت وصيتى فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك، وإن ضيعت وصيتى فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجز الله... اهـ (١).

الثانية: وصية عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى الأحنف بن قيس:

يا أحنف من كثر ضحكك قلت هييته، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عُرِف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه... اهـ (٢).

الثالثة: وصية على بن أبى طالب - رضى الله عنه -

أوصيكم عباد الله ونفسى بتقوى الله، ولزوم طاعته، وتقديم العمل، وترك الأمل؛ فإنه من فرط فى عمله لم يتففع بشيء من أمله، أين التعب بالليل والنهار، والمقتحم للرجح

(١) انظر: البيان والتبيين للجاحظ ج ٢/ ٤٥.

(٢) انظر: تاريخ عمر بن الخطاب تأليف أبى الفرج عبد الرحمن الجوزى ط. دمشق ص ٢٠٢.

البحار، ومفاوز القفار؟ يسير من وراء الجبال، وعالج الرمال، يَصِلُ الغدو بالرواح، والمساء بالصباح، في طلب محقرات الأرياح، هجمت عليه منيته، فعظمت بنفسه رزيته، فصار ما جمع بورا، وما اكتسب غرورا، ووافى القيامة محسورا... اهـ^(١).

الرابعة: وصية علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بالخمس المنجيات:

أيها الناس احفظوا عني خمساً، فلو شددتم إليها المطايا حتى تنضوها لم تظفروا بمثلها: الا لا يَرْجُونَ أحدكم إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحي أحدكم إذا لم يعلم أن يتعلم، وإذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، الا وإن الخامسة الصبر: فإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ومن لا صبر له لا إيمان له، ومن لا رأس له لا جسد له.

ولاخير في قراءة إلا بتدبر، ولا في عبادة إلا بتفكر، ولا في حلم إلا بعلم. الا أنبئكم بالعالم كل العلم؛ من لم يزين لعباد الله معاصي الله، ولم يؤتمهم مكره، ولم يؤسهم من روحه، ولا تنزلوا المطيعين الجنة، ولا المذنبين الموحدين النار، حتى يقضى الله فيهم بأمره.

لاتأمنوا على خير هذه الأمة عذاب الله؛ فإنه يقول:

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الامراء: ٩٩].

ولاتنظتوا على شر هذه الأمة من رحمة الله؛ فإنه يقول:

﴿إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ اهـ^(٢) [يوسف: ٨٧].

الخامسة: وصية عمير بن حبيب الأنصاري - رضي الله عنه - لبيته:

إذا قال لهم: يا بني إياكم ومخالطة السفهاء؛ فإن مجالستهم داء، ومن يحلم على السفية يسر بحلمه، ومن يجبه يندم، ومن لا يفرّ بقليل ما يأتي به السفية يفرّ بالكثير. وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف، أو ينهى عن المنكر؛ فليوطن نفسه قبل ذلك على الأذى، وليوقن بالشواب من الله - عز وجل -، فإنه من يوقن بالشواب من الله - عز وجل - لا يجد مس الأذى... اهـ^(٣).

(١) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه ج٤/ ٦٧.

(٢، ٣) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه ج٤/ ٨٠-٨١.

السادسة: وصية علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - لأولاده:

بعد أن اعتدى عليه ابن ملجم؛ فدعا الحسن، والحسين، ومحمداً، وقال لهم: أوصيكم بتقوى الله، وأن لا تبغوا الدنيا وإن يغتكم، ولا تبكيوا على شيء روي عنكم، وقولا الحق، وارحما اليتيم، وأغشيا الملهوف، وأصنعوا للأخرة، وكونوا للظالم خصما، وللمظلوم ناصرا، واعملوا بما في الكتاب، ولا تأخذكم في الله لومة لائم^(١).

ثم خصّ عليّ - رضي الله عنه - ابنه محمداً بطاعة أخويه، وتوقيرهما فقال له: هل حفظت ما أوصيت به أخويك؟ قال: نعم. قال: فإني أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك، فاتبع أمرهما، ولا تقطع أمرآدونهما... اهـ^(٢).

ثم أوصى الحسن، والحسين بأخييهما محمد خيراً فقال لهما: أوصيكما به فإنه ابن أبيكما، وقد علمتما أن أباكما يحبه فأحبّاه... اهـ^(٣).

ثم قال للحسن: أوصيك أي بني بتقوى الله، وإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة عند محلّها، وحسن الوضوء؛ فإنه لا صلاة إلا بطهور، ولا تقبل صلاة من مانع زكاة، وأوصيك بغفر الذنب، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، والحلم عند الجهل، والتفقه في الدين، والتثبت في الأمر، والتعاهد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش... اهـ^(٤).

السابعة: وصية علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - لكميل بن زياد النخعي:

إذ يقول كميل: أخذ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بيدي، فأخرجني إلى ناحية (الجبانة)^(٥). فلما أصبحنا جلس ثم تنفّس، ثم قال: يا كميل بن زياد القلوب أوعية فخيرها أوعاها، احفظ ما أقول لك: الناس ثلاثة: فعالم ربّاني، ومتعلّم على سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق.

العلم خير من المال: العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل، والمال تنقصه النفقة. ومحبة العالم دين يدان بها، العلم يكسب العالم الطاعة في حياته، وجميل الأحذوثة بعد موته، وصنيعة المال تزول بزواله.

(١) انظر: أسد الغابة ج١/ ٢٩٠ - رقم الترجمة/ ٤٠٦٣، وانظر: الإصابة ج١/ ٧١٥ - رقم الترجمة/ ٦٠٣٣.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ج١/ ١٤٧، انظر: الكامل لابن الأثير ج١/ ١٩٦.

(٥) الجبانة: الصحراء التي بها المقابر.

مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة... اهـ^(١).

الثامنة: وصية معاذ بن جبل - رضي الله عنه - في الحث على طلب العلم والاستزادة منه،

إذ قال: تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة، وبذله لأهله قرية؛ لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار أهل الجنة، والانس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلام على الأعداء، والدين عند الأجلاء، يرفع الله به أقواما يجعلهم في الخير قادة، وأئمة تقتبس آثارهم، ويقتدى بفعالهم، وينتهي إلى رأيهم.

ترغب الملائكة في خلقتهم، وباجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب وبابس حتى الحيتان في البحر وهوامه، وسباع الطير وأنعامه؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلم، يبلغ بالعلم منازل الأخيار، والدرجة العليا في الدنيا والآخرة، والتفكير فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء... اهـ^(٢).

التاسعة: وصية أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ليزيد بن أبي سفيان - رضي الله عنه - (٣) حينما أرسله فاتحا للشام؛

قال ابن الأثير: (٤) أمر أبو بكر - رضي الله عنه - ليزيد بن أبي سفيان حينما بعثه إلى الشام سنة ١٣ هـ وأوصاه وغيره من الأمراء، فكان مما قال ليزيد: إني قد ولّيتك لأبلوك، وأجرّبك، وأخرجك، فإن أحسنت رددتك إلى عملك، وإن أسأت عزلتك. فعليك بتقوى الله، فإنه يرى من باطنك مثل الذي يرى من ظاهرك، وإن أولى الناس

(١) انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم ح ١/ ٧٩ - ٨٠.

(٢) انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم ح ١/ ٢٣٩.

(٣) من بني أمية، أسلم يوم فتح مكة، استعمله النبي ﷺ على صدقات (بني فراس)، وكانوا أخواله.

(٤) هو أبو الحسن علي بن محمد الشيباني ت ٦٣٠ هـ.

بالله أشدهم تولياً له، وأقرب الناس من الله أشدهم تقريباً إليه بعمله. وقد وليتك عمل خالد بن سعيد بن العاص^(١) فإياك وعبيّة الجاهلية^(٢)؛ فإن الله يبغضها، ويبغض أهلها. وإذا قدمت على جُندك فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير، وعدهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز، فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً، وأصلح نفسك، يصلح الله لك الناس، وصلّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها.

وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم، وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكري وهم جاهلون به، وأنزلهم في ثروة عسكري^(٣)، وامنع من قبلك من مجادلته، وكن أنت المتولّى لكلامهم، ولا تجعل سرّك لعلانيتك، فيختلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة، واسمّر بالليل في أصحابك تأتاك الأخبار وتتكشف عندك الأستار، وأكثر حرسك، وبدّدهم في عسكري، وأكثر مفاجاتهم في محارستهم^(٤) بغير علم منهم بك؛ فمن وجدته غفل عن مَحْرَسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير إفراط، وعقب بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فلإنها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تخف من عقوبة المستحق، ولا تسرع إليها، ولا تغفل عن أهل عسكري فتفسدهم، ولا تتجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف للناس عن أسرارهم، واكتف بعلايتهم، ولا تتجالس العباثين، وجالس أهل الصدق والوفاء، واصدق في اللقاء، ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول^(٥)؛ فإنه يقرب الفقر، ويدفع النصر، وستجد أقواماً حبسوا أنفسهم في الصّوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له... اهـ^(٦).

العاشرة: وصية العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - لولده عبد الله - رضي الله عنه -:

قال عبد الله بن عباس: قال لي أبي: أرى هذا الرجل - يعني عمر بن الخطاب - يستفهمك، ويقدمك على الأكابر من أصحاب نبينا محمد ﷺ، وإنني موصيك بخلال

(١) الذي عزله أبو بكر عن قيادة جيش الشام.

(٢) أي: فخرها، وخيلاؤها.

(٣) أي: في الكثرة ذات العدة حتى تروّعهم قوتك.

(٤) أي: موقع الحراسة.

(٥) أي: الغدر والخيانة.

(٦) انظر: الكامل لابن الأثير ج ٢/ ٢٧٦-٢٧٧.

أربع : لا تفشين له سرا، ولا يجربن عليك كذبا، ولا تطوين عنه نصيحة، ولا تغتابن عنده أحدا. قال عامر بن شراحيل الشعبي (ت ١٠٣ هـ) : فقلت لابن عباس : كل واحدة خير من ألف، قال : أي والله ومن عشرة آلاف... هـ (١).

الحادية عشرة: وصية عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - في الحث على طلب العلم:

إذ قال : ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون، وينهاره إذ الناس يفترون، ويحزنه إذ الناس يفرحون، ويبكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخلطون، وبخشوعه إذ الناس يختالون.

وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيا محزونا، حكيما حليما عليما سكيما، وينبغي لحامل القرآن ألا يكون جافيا، ولا غافلا، ولا صخابا، ولا صياحا... هـ (٢).

الثانية عشرة: وصية الخنساء - رضي الله عنها - في حث أولادها على الجهاد:

قالت - رضي الله عنها - : تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية.

يقول الله - عز وجل - :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فإذا أصبحتم غداً فاغمدوا على قتال عدوكم مستبصرين، والله على أعدائه مستفرين، فلما بلغها خبر استشهادهم قالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته... هـ (٣).

- والله أعلم -

(١) انظر: المعقد الفريد لابن عبد ربه ج ١/ ٩-١٠.

(٢) انظر: حلية الأولياء ج ١/ ١٣٠.

(٣) انظر: خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب تأليف عبد القادر بن عمر البغدادى ج ١/ ٣٩٦.

وصايا العصر الجاهلي

الموضوع
الثالثالأولى: وصية مرثد الخير لرجلين من قومه:

قال أبو علي القالي: كان مرثد الخير بن يشكف بن معد يكرب حديبا على عشيرته محبا لصلاحهم، وكان سبيع بن الحارث أخو علس، وميشم بن ثوب بن ذى رعين تنازعا الشرف حتى تشاحنا، وخيف أن يقع بين حبيهما شر فيفتانني حذماهما. فبعث إليهما مرثد الخير فأحضرهما ليصلح بينهما فقال لهما: إن التخبط^(١)، وامتطاء الهجاج^(٢)، واستحقاب اللجاج^(٣)، سيقفكما على شفا هوة، وفي توردها^(٤) بوار الأصلية^(٥)، وانقطاع الوسيلة، فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد^(٦)، وانحلال العقد، وتشت الألفة وتباين السهمة^(٧)، وأنتما في فسحة رافقه^(٨)، وقدم واطدة^(٩)، والمودة مثرية^(١٠)، والبقياء معرضة^(١١)، فقد عرفتما أنباء من كان قبلكما من العرب ممن عصى النصيح، وخالف الرشيد، وأصغى إلى التقاطع، ورأيتما ما ألت إليه عواقب سوء سعيهم، وكيف كان صيور أمرهم، فتلافيا القرحة قبل تفاقم الشاي^(١٢)، واستفحال الدار، وإعواز الدواء، فإنه إذا سفكت الدماء، استحكمت الشحناء، وإذا استحكمت الشحناء تقضبت عرى الإبقاء^(١٣) وشمل البلاء، فقال سبيع: أيها الملك إن عداوة بني العللات^(١٤) لا تبرئها الأساة^(١٥) ولا تشفيها الرقاة، ولا تستقل بها الكفاة، والحسد الكامن: هو الداء الباطن وقد علم بنو أينا هؤلاء أن لهم ردها^(١٦) إذا رهبوا، وغينا إذا أجذبوا، وعضسدا إذا حاربوا، ومقرعنا إذا بكوا. فقال ميشم: أيها الملك إن من نفس على ابن أبيه الزعامة، وجذبته في المقامة^(١٧)، واستكثر له قليل الكرامة، كان قرقا

(١) وهو: ركوب الإنسان رأسه في الشر على غير هدى.

(٢) وهو: اعتساف الأمر، واللجاجة في الشيء.

(٣) الحقاب: هو الخيط الذي تشد به المرأة وسطها، وهذا مثل: أراد أنه احتزم باللجاج، أوجعله في وعائه.

(٤) التوردة: هو الإشراف على مورد الماء.

(٥) أي: هلاك الأصلية.

(٦) السهمة: القرابة، وتباينها: انقطاعها.

(٧) أي: انتقاضه.

(٨) القدم الواطدة: الثابتة.

(٩) أي: ناعمة من الرفاهية.

(١٠) أي: متصلة.

(١١) أي: ممكنة فقد أمكنت من عرضها أي: جنبها وناحتيتها.

(١٢) أي: تقطعت.

(١٣) أي: فساد الجرح.

(١٤) وهم بنو أمهات شتى من رجل واحد.

(١٥) الأساة: جمع أس وهو الطيب.

(١٦) الردة: الموت.

(١٧) جَلَبَه: بمعنى عابه.

بالملامة^(١)، ومؤثراً على ترك الاستقامة، وإنا والله ما نعتدّ لهم بيد إلا وقد نالهم منا كفأؤها، ولا نذكر لهم حسنة إلا وقد تطلّع منا إليهم جزاؤها، ولا يتقيأ لهم علينا ظلّ نعمة إلا وقد قبلوا بشرها^(٢)، ونحن بنو فحلّ مكرم^(٣)، لم تقعد بنا الأمهات ولا بهم، ولم تنزنا أعراق السوء، ولا إيتاهم، فعلام مطّ الخدود^(٤)، وخرّز العيون^(٥)، والجخيف^(٦)، والتصعّر؟ ومقاطع الأمور ثلاثة: حرب مبيزة^(٧)، أو سلم قريرة، أو مداجاة وغفيرة^(٨)، فقال الملك: لا تنشطوا عقل الشوارد^(٩)، ولا تلتفحوا العون القواعد^(١٠)، ولا تؤرثوا^(١١) نيران الأحقاد، ففيها المتلفة المستأصلة، والجائحة^(١٢)، والآلية^(١٣)، وعقروا بالحلم أبلاد^(١٤)، وأنبيوا إلى السبيل الأرشد، والمنهج الاقصد... اهـ^(١٥).

الثانية: وصية أكثم بن صيفي للحارث بن أبي شمر الغساني:

قال أبو حاتم السجستاني: كتب الحارث بن أبي شمر الغساني ملك عرب الشام إلى أكثم بن صيفي بن رباح: أن هرقل نزل بنا، وقامت خطباء غسان بأمر حسن. فعجب من رأيهم وأحلامهم، وأعجبني ما رأيت منهم ففخرت بهم عليه. فقال: هذا أدبي، فإن جهلت ذلك فانظر بجزيرة العرب مثل هؤلاء حكماء، وعقولا، والسنة. فكتب إليه أكثم بن صيفي: إن المروءة أن تكون عالماً كجاهل، وناطقاً كعيسى، والعلم مرشدة، وترك ادعائه ينفي الحسد، والصمت يكسب المحبة، وفضل القول على الفعل لوم، وفضل الفعل على القول مكرمة، ولم يلز الكذب بشيء إلا غلب عليه، وشر الخصال الكذب، والصدق مسمى من الصدق، والقلب يتهم وإن صدق اللسان، والانقباض من الناس مكسبة للعداوة، والتقرب من الناس مجلبة لجليس السوء. فكن من الناس بين المنقبض

(١) أي: كان خليقاً بها.

(٢) أي: بمثلاً.

(٣) المكرم: هو السيد الزعيم في قومه.

(٤) مطّ الخدود: أي: مدّها استغراباً.

(٥) هو: أن ينظر الإنسان إلى غيره من مؤخرة عينه استكراهاً له، أو استهزاءً.

(٦) الجخيف: هو التكبر.

(٧) الحرب المبيزة: أي: المهلكة.

(٨) المداجاة والغفيرة: أي: المساترة والغفران.

(٩) العقل: جمع عقول: وهو الحبل كناية عن النهي للحرب.

(١٠) هذا مثل وأصله في الإبل يقال لقحت الناقة: إذا حملت، والكلام هنا كناية عن الحرب إذا ابتدأت.

(١١) بمعنى: تذكروا وتشعلوا.

(١٢) الجائحة: الاستئصال.

(١٣) الآلية: الكل.

(١٤) الأبلاد: جمع بلد: وهو الأثر من الشيء.

(١٥) انظر الأمانى لاسي على القالي ٩٢-٩٣. وجمهرة خطب العرب ١٠-١٣.

والمسترسل، وخير الأمور أوسطها، وأفضل القراء المرأة الصالحة، وعند الخوف حسن العمل، ومن لم يكن له من نفسه واعظ لم يكن له من علمه زاجر، ومن أهمل نفسه أمكن عدوه على أسوأ عمله، وأول الغيظ الوهن... اهـ^(١).

الثالثة: وصية أكثم بن صيفي لبنيه:

قال أبو حاتم السجستاني: قالوا: جمع أكثم بن صيفي (بنيه)، فقال: يا بني قد أتت على مائتا سنة، وإنني مزودكم من نفسي: عليكم بالبر فإنه ينمي العدد، وكفوا ألسنتكم؛ فإن مقتل الرجل بين فكيه، إن قول الحق لم يدع لى صديقا، وإنه لا ينفع من الجزع التبكّي، ولا ممّا هو واقع التوقّي. وفي طلب المعالي يكون الغرر، والاقتصاد في السعى أبقي للجمال، ومن لا يأسى على ما فاته ودّع بدنه، ومن قنع بما هو فيه قرّت عينه، التقدّم قبل التندّم لأن أصبح عند رأس الأمر أحبّ إلى من أن أصبح عند ذنبه، لم يصلك من مالك ما وعظك، ويل للعالم أمر من جاهله. الوحشة ذهاب الأعلام، ويتشابه به الأمر إذا أقبل، فإذا أدبر عرفه الأحق والكيس، البطر عند الرخاء حمق، والجزع عند النازلة آفة التجمّل، ولا تغضبوا من اليسير؛ فإنه يجنى الكثير، لا تجبوا فيما لا تسألون عنه، ولا تضحكوا ممّا لا يضحك منه، ولقد رأيت جبلا مطلا تزايله حجارته، ولقد رأيت أملس ما فيه صدع، ألزموا النساء المهابة، ولنعم لهر الحرّة المغزل، وأحمق الحمق الفجور، وحيلة من لا حيلة له الصبر، إن كنت نافعي فورّ عيني عينك، إن تعش تر ما لم تر، قد أقرصامت، المكثار كحاطب ليل. ومن أكثر أسقط، لا تبولوا على أكمة، ولا تفشوا سرا إلى أمة، من لم يرج إلا ما هو مستوجب له كان قمتا أن يدرك حاجته، ولا تمنعنكم مساوى الرجل من ذكر محاسنه. يا بني لا يغلبكم جمال النساء عن صراحة النسب؛ فإن المناكح الكريمة مدرجة للشرف... اهـ^(٢).

الرابعة: وصية دريد بن الصمة الجشمي إلى قومه:

قال أبو حاتم السجستاني: عاش دريد بن الصمة الجشمي نحو من مائتي سنة حتى سقط حاجباه على عينيه، وأدرك الإسلام ولم يسلم، وقتل يوم (حنين) كافرا.

(١) انظر: المعمرون والوصايا ص ٢٣، ٢٤.

(٢) انظر: المعمرون والوصايا ص ١٤-١٥، وانظر: جمهرة خطب العرب ج ١/ ١٣٠-١٣٣.

ولمّا كبر أراد أهله أن يجسوه فقالوا: إنا حابسوك، ومانعوك من كلام الناس، فقد خشينا أن تُخلط فيروى ذلك الناس علينا، ويرون منك علينا عاراً. قال: أوقد خشيتم ذلك مني؟ قالوا: نعم. قال: فأنحروا جزوراً، واصنعوا طعاماً، واجمعوا إلى قومي حتى أحدث لهم عهداً.

فأنحروا جزوراً، وعملوا طعاماً، ولبس ثياباً حسناً، وجلس لقومه، حتى إذا فرغوا من طعامهم قال: اسمعوا مني فإني أرى أمري بعد اليوم صائراً لغيري، وقد رعم أهلي أنهم خافوا على الوهم، وأنا اليوم خير بصير. إن الوصية لا تهجم على فضيحة.

أما أول ما أنهاكم عنه: فأنهاكم عن محاربة الملوك، فإنهم كالسيل بالليل لا تدرى كيف تأتيه؟ ولا من أين يأتيك؟ وإذا دنا منكم الملك وأدياً فاقطعوا بينكم وبينه واديين، وإن أجذبتم فلا ترعوا حمى الملوك وإن أذنوا لكم، فإن من رعاه غنما لم يرجع سالماً، ولا تحقرن شراً؛ فإن قليله كثير، واستكثروا من الخير فإن زهیده كبير، واجعلوا السلام محبة بينكم وبين الناس، ومن خرق ستركم فارقعه، ومن حاربكم فلا تغفلوه، وروا منه ما يرى منكم، واجعلوا عليه حدكم كله، ومن تكلم فاتركوه.

ومن أسدى إليكم خيراً فأضعفوه له، وإلا فلا تعجزوا أن تكونوا مثله. وعلى كل إنسان منكم بالأقرب إليه يكفى كل إنسان ما يليه، وإذا التقيتم على حسب فلا تواكلوا فيه. وما أظهرتم من خير فاجعلوه كثيراً، ولا يري رفدكم صغيراً، ولا تنافسوا السؤدد، وليكن لكم سيد، فإنه لا بد لكل قوم من شريف، ومن كانت له مروءة فليظهرها، وحسبه بالمروءة صاحباً، ووسعوا الخير وإن قل، وادفنوا الشر يمّت، ولا تنكحوا دنياً من غيركم، فإنه عار عليكم، ولا يحتشمن شريف أن يرفع وضيعه، وإياكم والفاحشة في النساء فإنها عار أبدي، وعقوبة غدي. وعليكم بصلة الرحم فإنها تعظم الفضل، وتزين النسل، وأسلموا إذا الجريرة بجريرته، ومن أبى الحق فأعقلوه إياه، وإذا عيسيت بامر فتعاونوا عليه تبلغوا، ولا تحضروا ناديك السفيه، ولا تلجؤا بالباطل فيلج بكم... اهـ^(١).

الخامسة: وصية زهير بن جناب لبنيه:

قال أبو حاتم السجستاني: قالوا: أوصى زهير بن جناب بنيه فقال: يا بني قد كبرت سني، وبلغت حرساً من عمري^(١)، وأحكمتني التجارب، والأمور تجربة واختبار، فاحفظوا عني ما أقول وعوّه، وإياكم والخور عند المصائب، والتواكل عند الثواب، فإن ذلك داعية للغم، وشماتة للعدو، وسوء الظن بالرب وإياكم أن تكونوا بالاحداث مغترين، ولها آمنين، ومنها ساخرين، فإنه والله ما سخر امرؤ قط إلا ابتلى، ولكن استعفوا منها وتوقعوها، فإنما الإنسان في الدنيا غرض تعاوده الرماة: فمقصودونه، ومجاوز لموضع، وواقع عن يمينه وشماله، ثم لا بد أنه مصيبه... اهـ^(٢).

السادسة: وصية حصن بن حذيفة لبنيه:

قال أبو حاتم السجستاني: أوصى حصن بن حذيفة الغزاري بنيه فقال: اسمعوا ما أوصيكم به، لا يتكلن آخركم على فعال أولكم، فإن الذي يدرك به الأول حجة على الآخر، وانكحوا الكفء من العرب فإنه عز حادث، وإذا حاربتم فأوقعوا، وقولوا واصدقوا، فإنه لا خير في الكذب وصونوا الخيل فإنها حصون الرجال، وأطيلوا الرماح فإنها قرون الخيل، واغزوا الكثير بالكثير، وبذلك كنت أغلب الناس، ولا تغزوا إلا بالعيون، ولا تسرحوا حتى تأمنوا الصباح، وعجلوا القرى، فإن خيره أعجله، وأعطوا على حسب المال فإنه أبقي لكم، ولا تحسدوا من ليس مثلكم، ولا تحكروا على الملوك فإن أيديهم أطول من أيديكم، ولا تأمنوا صرعات البغي، ونضحات الغدر، وقلات المزاح... اهـ^(٣).

السابعة: وصية أبي طالب لقريش حين حضرته الوفاة:

لما حضرت أبا طالب الوفاة، جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال لهم: يا معشر قريش، أنتم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب، وفيكم السيد المطاع، وفيكم المقدم الشجاع، والواسع الباع، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا أحرزتموه، ولا شرفاً إلا أدركتموه، فلكم بذلك على الناس الفضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة، والناس لكم حرب على حربكم، وإني أوصيكم بتعظيم هذه (البنية)^(٤)؛

(١) وهو الدهر الطويل.

(٢) انظر: المعمرّون والوصايا ص ١٢٩، وأمالى المرتضى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ج ١/ ٢٣٨.

(٣) انظر: المعمرّون والوصايا ص ١٣٢-١٣٣، وأمالى المرتضى ج ١/ ٥٣١. (٤) المراد بها: الكعبة.

فإن فيها مرضاة للرب، وقواما للمعاش، وثباتا للوطاة، صلوا أرحامكم؛ فإن صلة الرحم منسأة في الأجل، وزيادة في العدد، اتركوا البغى والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم، أجيئوا الداعي، وأعطوا السائل فإن فيهما شرف الحياة والممات، وعليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، فإن فيهما محبة في الخاص، ومكرمة في العام.

أوصيكم بالنبي محمد خيراً؛ فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به، وقد جاءنا بأمر قبيلة الجنان، وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وإيم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل الأطراف، والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنانا، ودورها خرابا، وضعفاؤها أربابا. إذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أخطوهم عنده. قد محضته العرب ودادها، وأصفت له بلادها، وأعطته قيادها. يامعشر قريش كونوا له ولاة، ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد، ولا يأخذ بهديه أحد إلا سعد، ولو كان لنفسي مدة، وفي أجلى تأخير لكففت عنه (الهزأز)^(١)، ولدافعت عنه الدواهي... اهـ^(٢).

الثامنة: وصية عامر بن الضرب لقومه عند وفاته:

قال أبو حاتم السجستاني: لما كبر عامر بن الضرب وتخوف قومه أن يموت اجتمعوا إليه فقالوا له: ياميدنا وشريفنا أوصنا. فقال: لقد كلفتموني تعباً، إن كنتم شرفتموني فقد التمسْتُ ذلك منكم، وإنى قد أريتكم ذلك من نفسي، وأنى لكم مثلى، افهموا عنى ما أقول لكم: من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعوا له وكان الباطل أولى به، وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل، ولم يزل الباطل ينفر من الحق، لا تشتموا بالزلة، وبكل عيش يعيش الفقير، وأعدوا لكل أمر قدره، قبل الرماء تملأ الكنائن، ومع السفاهة الندامة، والعقوبة نكال وفيها ذمامة، فلا تدموا العقوبة، واليد العليا معها عافية، والقود راحة لأعليك ولا لك، وإذا شئت وجدت مثلك إن عليك كما أن لك، وللكترة الرعب، وللصبر الغلبة. من طلب شيئاً وجده، وإلا يجده

(١) أى: ما يهز الإنسان من المصائب.

(٢) انظر: بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب تأليف: محمود شاكر الألوسى ج ١/ ٣٢٧-٣٢٨.

يوشك أن يقع قريباً منه. فيا معشر عدوان إياكم والشر فإن له باقية، وادفعوا الشر بالخير يغلبه، إن من يدفع الشر بالشر رجع الشر عليه، وليس في الشر أسوة، ومن سبقكم إلى خير فاتبعوا أثره تجدوا فضلاً، إن خالق الخير والشر وسعهما، ولكل يد منهما نصيب. يا معشر عدوان إن الأول كفى الآخر، فمن رأيتموه أصابه شر فإنما أصابه فعله، فاجتنبوا ذلك الذي فعله، يا معشر عدوان إن الشر ميت، وإنما يأتيه الحي فيصيه، ومن اجتنب الشر لم يثب الشر عليه. يا معشر عدوان: إن الخير غزوف الوف، ولم يفارق الخير صاحبه حتى يفارقه، ولن يرجع إليه حتى يأتيه.

يا معشر عدوان: ربوا صغيركم، واعتبروا بالناس ولا يعتبر الناس بكم، وخذوا على أيدي سفهائكم تقل جرائركم، وإياكم والحسد فإنه شؤم ونكد، وإن كل ذي فضل واجد أفضل منه، ومن بلغ منكم خطة خير فأعينوه، واطلبوا مثلها، ورغبوه في نيته، وتنافسوا في طريقته، ومن قصر فلا يلومن إلا نفسه، وإنني وجدت صدق الحديث طرّفاً من الغيب فاصدّقوا تصدّقوا، وإنني رأيت للخير طرّفاً فاسلكونها، ورأيت للشر طرّفاً فاجتنبتها، وإنني والله ما كنت حكيماً حتى تبعث الحكماء، وما كنت سيّدكم حتى تعبدت لكم، إن الموعدة لاتنفع إلا عاقلاً، وإن لكل شيء داعياً، فأجيبوا إلى الحق وادعوا إليه وأذعنوا له... اهـ^(١).

التاسعة: وصية ذي الإصبع العدواني لابنه أسيد:

قال أبو الفرج الأصبهاني: لما احتضر ذو الإصبع دعا ابنه أسيداً فقال له: يا بُنى إن أباك قد فنى وهو حى، وعاش حتى سئم العيش، وإنى موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغت، فاحفظ عني: ألن جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك، وابسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صغارهم، واسمح بمالك، واحم حريمك، وأعز جارك، وأعن من استعان بك، وأكرم ضيفك، وأسرع التهضة فى الصبريخ، فإن لك أجلاً لا يعدوك، وصن وجهك عن مسئلة أحد شيئا، فبذلك يتم سؤددك... اهـ^(٢).

(١) انظر: المعمرون والوصايا ص ٥٩، ٦٠.

(٢) انظر: الأغاني لأبى الفرج الأصبهاني ج ٣/ ٩٨-٩٩، وجمهرة خطب العرب ج ١/ ١٢.

العاشرة: وصية عامر بن الضرب لابنته عند زواجها:

قال أبو حاتم السجستاني: كان من حديث عامر عندما رُوج ابنته (نَعْمَةُ بنت عامر) ابن أخيه عامراً بن الحارث، وقال لامها وهي: مارية بنت عوف بن فهر حين أراد البناء بها: يا هذه مري ابنتك فلا تنزلن فلاة إلا معها ماء، وأن تكثري استعمال الماء، فلا طيب أطيب منه، وإن الماء جعل للأعلى جلاء، وللأسفل نقاء، وإياك أن تميلِي إلى هواك ورأيك، فإنه لا رأي للمرأة، وإياي ووصيتك، فإنه لا وصية لك. أخبرني ابنتك أن الكرامة المؤاتاة، فلا تستكرهن زوجها من نفسها، ولا تمنعه عند شهوته؛ فإن الرضا الإتيان عند اللذة، ولا تكثري مضاجعته، فإن الجسد إذا ملَّ ملَّ القلب، ومريها لا تمزحن معه بنفسه، فإن ذلك يكون منه الانقباض، ومريها فلتخبأ سوءتها منه، فإنه وإن كان لا بد من أن يراها؛ فإن كثرة النظر إليها استهانة وخفة. اهـ^(١).

الحادية عشرة: وصية عامر بن الضرب لثماً خطب إليه صعصعة ابن معاوية ابنته:

قال أبو حاتم السجستاني: وكان من حديث عامر بن الضرب أنه خطب إليه صعصعة بن معاوية ابنته فقال له: يا صعصعة قد جئت تشتري مني كبدِي، وأكرم ولدي عندي، النكاح خير من الأيمة، والحسبُ كفاء الحسب، والزَّوج الصالح يُعدُّ أباً، قد أنكحتك خشية إلا أجد مثلك. يا معشر دَوْس خرجت كريمتكم من بين أظهركم من غير رغبة عنكم، ولكنه خطبَ له شيء جاءه، رب رارع لنفسه ما حصده غيره، ولولا قَسَمُ الحظوظ ما أدرك الآخر مع الأول شيئاً يعيش به، ولكن رزق أكل من آجل وعاجل، إن الذي أرسل الحي أنبت المرعى، ثم قسمه، وكلاً لكل فَم بقلّة، ومن الماء جرعة، ترون ولا تعملون، ولن يرى ما أصف لكم إلا كل قلب واع، ولكل مرعى راع، ولكل رزق ساع، ولكل خلق خلق؛ كَيْسٌ أو أَحْمَق، وما رأيت شيئاً قط إلا سمعت حسنه ووجدت مسه، وما رأيت شيئاً خلق نفسه، وما رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً، وما رأيت جاثياً إلا ذاهباً، ولا غانماً إلا خائباً، ولا نعمة إلا معها بؤس، ولو كان يميّت الناس الداء، لأعاشهم الدواء، فهل بكم العلم العليم؟ قيل: وما هو؟

(١) النظر: المعمرون والوصايا من ٦٠.

فقد قلت فأصبت، وأخبرت فصدقت، فقال: أرى أموراً شتى، ولذلك خلقت الأرض والسموات، فتولوا عنه ذاهبين... اهـ^(١).

الثانية عشرة: وصية أم إياس بنت عوف لابنتها ليلة زواجها،

قال ابن عبد ربه: خطب عمرو بن حُجر إلى عوف بن مُحَلَم الشيباني ابنته أم إياس فقال: نعم. أزوجه على أن أسمى بنيتها، وأزوج بناتها. فقال عمرو بن حُجر: أمّا بنونا فنسميهم بأسمائنا، وأسماء آبائنا، وعمومتنا، وأمّا بناتنا فينكحهن أكفأهن من الملوك، ولكنني أصدقها عقاراً في (كندة) وأمنحها حاجات قومها، ولا تُردّ لأحد منهم حاجة، فقبل ذلك منه أبوها، وأنكحه إياها. فلما كان بناؤه بها خلت بها أمها فقالت: أي بُنية إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت، وعُشك الذي فيه درجت، وإلى رجل لم تعرفه، وقرين لم تأليفه، فكوني له أمة يكن لك عبداً، واحفظي له خصالاً عشرين يكن لك ذخراً:

أمّا الأولى والثانية: فالخشوع له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة.

وأمّا الثالثة والرابعة: فالتفقد لموضع عينيه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح.

وأمّا الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت منامه وطعامه، فإن تواتر الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

وأمّا السابعة والثامنة: فالاحتراس بماله، والإرعاء على حشمه وعياله، وملاك الأمر في المال حسن التدبير، وفي العيال حسن التقدير.

وأمّا التاسعة والعاشرة: فلا تعصين له أمراً، ولا تفشين له سرا، فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره... اهـ^(٢).

- والله أعلم -

(١) انظر: المعمرون والوصايا ص ٦٣ - ٦٤، والعقد الفريد ج ٦/ ٨٣.

(٢) انظر: العقد الفريد ج ٦/ ٨٣-٨٤.

وصايا العصر الأموي

الموضوع
الرابع

الأولى: وصية معاوية بن أبي سفيان - رضى الله عنه - لولده يزيد:

إذ قال له لما حضرته الوفاة: يا بُنى إني كفيتك الحل والترحال، ووطأت لك الأشياء، وذلت لك الأعزاء، واخضعت لك أعناق الدب، وجمعت لك ما لم يجمعه واحد. فانظر أهل الحجار: فإنهم أصلك فأكرم. قدم عليك منهم، وتعهد من غاب عنك منهم.

وانظر أهل العراق: فإن سألك أن تغزل عنهم في كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إليك من أن يشهر عليك مائة ألف سيف.

وانظر أهل الشام: فليكونوا بطانتك، فإذا أصبت بهم عدوك فارددهم إلى بلادهم؛ فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أقاموا بغير أخلاقهم... اهـ^(١).

الثانية: وصية عبد الملك بن مروان - رحمه الله تعالى - لبتيه عند ما حضرته الوفاة:

إذ قال: يا بُنى أوصيكم بتقوى الله فإنها أحسن كهف، وأزین حلية، ليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير منكم حق الكبير، وإياكم والاختلاف والفرقة، فإن بهما هلك الأولون قبلكم، وذلل ذوو العدد والكثرة. انظروا مسلمة بن عبد الملك (ت ١٢٠هـ)^(٢)، فاصدروا عن رأيه، فإنه جنتكم الذي به تستجثون. أكرموا الحجاج فإنه وطأ لكم المنابر، وكونوا عند القتال أحراراً، وعند المعروف منارا، وكونوا بني أم بررة، لينوا في شدة، ثم رفع رأسه إلى الوليد فقال: يا وليد لا أعرفك إذا وضعتني في حفرتي تمسح عينيك وتعصرهما فعل الأمة، ولكن إذا وضعتني في حفرتي فشمّر واتزر، والبس جلد النمر، ثم اصعد إلى المنبر فادع الناس إلى البيعة، فمن قال: كذا، فقل: كذا، وأوما إليه، ومن قال: لا، فاقتله... اهـ^(٣).

(١) انظر: تاريخ الطبري ج ٥/ ٣٢٣.

(٢) مسلمة بن عبد الملك (ت ١٢٠هـ).

كان أميراً قائداً، غزا القسطنطينية في عهد أخيه سليمان، وبني بها مسجداً سنة ٩٦هـ.

(٣) انظر: المعمرون والوصايا ص ١٦٠.

الثالثة: وصية هشام بن عبد الملك لمؤذنب ولده محمد:

قال أبو حاتم السجستاني: ذكر بعض أهل العلم أن هشام بن عبد الملك أرسل إلى سليمان الكلبى، وكان رجلاً جامعاً للأدب فاضلاً، ذا رأى. قال سليمان الكلبى: فدخلت عليه وهو فى غرفة له، قد علا نفسى، وانتفخ سحرى، فسلمت عليه فردّ علىّ، وأضرب عنتى حتى سكن جأشى، ثم قال لى: يا سليمان قد بلغنى عنك ما أحبّ، وإذا بلغنى عن أحد من رعيّتى مثل الذى بلغنى عنك أسرعت إليه بما يحبّ، واستعنت به على مهمّ أمرى. وإنّ محمداً ابن أمير المؤمنين بالمكان الذى بلغك، وهو جلدة ما بين عينى، وإنّى أرجو أن يبلغ الله به أفضل ما بلغ بأحد من أهل بيته، وقد ولاك أمير المؤمنين تأديبه، وتعليمه، والنظر فيما يصلح الله به أمره. فعليك بتقوى الله، وأداء الأمانة فيه، فإنك تقصد فيه بخصال لو لم تكن إلا واحدة كنت قمناً إلا تضيّعها، فكيف إذا اجتمعت؟

أمّا أولها: فإنك مؤتمن عليه، وحقّ لك أداء الأمانة فيه.

وأمّا الثانية: فأنا إمام ترجونى، وتخافنى.

وأمّا الثالثة: فكلّمنا ارتقى الغلام فى الأمور درجة ارتفعت معه، ففى هذا ما يرغبك فيما أوصيك به.

فأدخل عليه فى خاصّة أهل القرآن، وذوى الأسنان، فإنك منهم بين خصلتين: إمّا أن يسمع منهم كلاماً فيعيه ويحفظه، فيكون لك صونه وذكره، وإمّا أن يراهم الناس يخرجون من عنده فيرون أنكم على مثل ما هم عليه. ولا تُدْخِلْ عليه الفسّاق، ولا شرّبة الخمر، فإنك منهم بين خصلتين: إمّا أن يسمع منهم كلاماً قيحاً فيعيه، ويحفظه، ويأخذ به، فتريد تحويله عن ذلك فلا تقدر عليه. وإمّا أن يرى الناس أنهم يخرجون من عندك فيرون أنكم على مثل ما هم عليه، وانظر إذا سمعت منه الكلمة العوراء فلا تؤثبه بها فتُمَحِّكه، ولكن احفظها عليه، فإذا قام من مجلسه فانقله إلى ما هو أحسن منه، وإذا سمعت منه الكلمة العجبة ففطن القوم لها، فإنهم عسى ألا يكونوا فهموها، وأنت فهمتها باهتمامك بها، حتى يقوموا وقد سمعوا منه كلاماً حسناً، ويروونه عنه ويرفعونه به. وإذا حضر الناس أبو ابكم فعجلوا إذنبهم، ثم يحسن بشركم به، وأطيبوا

للناس طعامهم، فإذا فرغوا من الغداء أو العشاء، فمن أحب أقام للحديث من قبل نفسه. ومن أحب أنصرف إلى أهله، فإن للناس حوائج عند ريارتكم. وإذا أعطيتهم أهل القرآن، وحملة العلم، وأهل الفضل، فإنكم تؤجرون على إعطائهم. وخذه بعلم نسبه في العرب، حتى لا يخفى عليه منه قليل ولا كثير، وعلمه منازل القمر، وأنواع الخطب، ومواضع الكلام، ومعرفة الجواب. وإياك أن تكتم عليه، فيؤدى ذلك إلى غيرك، فانزل لك عما يسرك إلى ما يضرك، ولا يخرجك إلا معتمًا، ولا يركب لا محذوفاً^(١)، ولا مهلوباً^(٢)، ولا يركب سرجاً صغيراً فتبدو منه إيتاه كفعل الفساق، فخذ بهذه الخصال، ورده من عندك ما استطعت، فإنى سأقيس عقله اليوم وبعد اليوم، فإن رأيته قد ازداد خيراً إلى ما كان عليه روى فضل أمير المؤمنين، وإن كانت الأخرى فلا تلم إلا نفسك، وقد أجريت عليك ألف درهم فى كل شهر سوى كسوتك، وجائزتك... اهـ^(٣).

الوصية الرابعة: وصية عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - لرعيته:

قال أبو الفرج بن الجوزي: لما ولى عمر بن عبد العزيز حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أوصيكم بتقوى الله فإن تقوى الله خلف من كل شيء، واعملوا لآخرتكم، فإن من عمل لآخرته كفاه الله - تبارك وتعالى - أمر دنياه، فأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد له قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات، وإنه من لم يذكر من آبائه ما بينه وبين آدم - عليه السلام - أباً حياً لمعز له فى الموت... اهـ^(٤).

الخامسة: وصية عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - لأحد جنوده:

إذا قال له: أما بعد: فإنى أوصيك بتقوى الله ولزوم طاعته، فإن بتقوى الله نجا أولياء الله من سخطه، فبادر بنفسك قبل أن تؤخذ بظلمك، ويخلص إليك كما يخلص إلى من كان قبلك، فقد رأيت الناس كيف يموتون، وكيف يتفرقون، ولا تطلبن شيئاً من عرض الدنيا بقول، ولا فعل تخاف أن يضر بآخرتك، ويزرى بدنياك، ويمقتك عند ربك.

(١) الفرس المحذوف: هى التى تحرك جنبها أو هجزها فى المشى.

(٢) الفرس المهلوب: هى التى تتقرب من الحصان، أو المتجنبة له.

(٣) انظر: المعمرين والوصايا، ص ١٣٧-١٣٩.

(٤) انظر: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٥٤.

واعلم أن القدر سيجري إليك برزقك ويوقيك أكلك من دنياك بغير مزيد فيه بحول منك ولا قوة، ولا منقوصاً منه بضعف. إن ابتلاك الله بفقر فتعفف في فقرك، وأخبت لقضاء ربك، واعتبر ما قسم الله لك من الإسلام بما روى عنك من نعيم الدنيا الفانية. واعلم أنه ليس يضر عبداً صار إلى رضوان الله وإلى الجنة ما أصابه في الدنيا من فقر أو بلاء، وأنه لن يتفع عبداً صار إلى سخط الله، وإلى النار ما أصاب في الدنيا من نعمة أو رخاء. ما يجدى أهل الجنة من مكروه أصابهم في دنياهم، وما يجدى أهل النار طعم لذة نعموا بها في دنياهم، كل شيء من ذلك كأن لم يكن، كل يوم تشيعون غادياً، ورائحاً قد قضى نجه، وقضى أجله، فاتقوا الله قبل نزول الموت، وإيم الله إنني لأقول لكم هذه المقالة، وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما أعلم عندى، وأستغفر الله وأتوب إليه.. اهـ^(١).

السادسة: وصية عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - لولده عبد الملك^(٢)،

وقد جاء فيها:

أما بعد: فإن أحق من تعاهدت بالوصية والنصيحة بعد نفسي أنت، وإن أحق من وعى ذلك وحفظه عني أنت.

إن الله له الحمد قد أحسن إلينا إحساناً كثيراً بالغاً في لطيف أمرنا وعامته، وعلى الله إتمام ما غير من النعمة، وإياه نسأل العون على شكرها، فاذكر فضل الله عليك وعلى أبيك، ثم أعن أباك على ما قوى عليه، وعلى ما ظننت أن عنده فيه عجزاً عن العمل فيما أنعم به عليه، وعليك في ذلك فراغ نفسك، وشبابك، وصحتك، وإن استطعت أن تكثر تحريك لسانك بذكر الله تحميداً، وتسييحاً، وتهليلاً فافعل، فإن أحسن ما قطعت به حديثاً حسناً حمد الله وشكره، وإن أحسن ما قطعت به حديثاً سيئاً حمد الله وذكره، فلا تفتتن فيما أنعم الله به عليك فيما عسيت أن تفرط به أباك فيما ليس فيه.

إن أباك كان بين ظهري إخوته يُفَضَّل عليه الكبير، ويدنى دونه الصغير، وإن كان الله - وله الحمد - قد رزقني من والدي حسناً جميلاً كنت به راضياً، وقد ولدت، وولدت طائفة من إخوتك، ولا أخرج بكم من المنزل الذي أنا فيه.

(١) انظر: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٢) هو أحد أولاد عمر بن عبد العزيز مات في حياة والده.

فمن كان راغباً في الجنة، وهارباً من النار فالآن التوبة مقبولة، والذنب مغفور قبل نفاذ الأجل، وانقضاء العمل، وفراغ الله للمتقين بأعمالهم في موضع لا تقبل فيه الفدية، ولا تنفع فيه المعذرة، تبرر فيه الخفيات، وتبطل فيه الشفاعات، يرده الناس بأعمالهم، ويصدرون عنه اشتاتاً إلى منازلهم، فطوبى يومئذ لمن أطاع الله، وويل يومئذ لمن عصى الله. فإن ابتلاك الله بغنى فاتصد في غناك، وضع الله نفسك، وأد إلى الله فرائض حقه من مالك، وإياك أن تفخر بقولك وأن تعجب بنفسك، أو يخيل إليك أن ما رزقته لكرامة لك على ربك، وفضيلة على من لم يرزق مثل غناك، فإذا أنت أخطأت باب الشكر، وتركنا منازل أهل الفقر، وكنت ممن طغى للغنى، وتعجل طبياته في الحياة الدنيا، فإني لأعظك بهذا، وإني لكثير الإسراف على نفسي غير محكم لكثير من أمري، ولو أن المرء لم يعظ أخاه حتى يحكم أمر نفسه، ويعمل في الذي خلق له من عبادة ربه، إذا لتواكل النار الخير، وإذا لرفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة في الأرض... اهـ^(١).

السابعة: وصية المهلب بن أبي صفرة لبنيه عند وفاته:

إذ قال: يا بني أوصيكم بتقوى الله. وصلة الرحم؛ فإن تقوى الله تعقب الجنة، وإن صلة الرحم تنسى في الأجل، وتشرى المال، وتجمع الشمل، وتكثر العدد، وتعمّر الدار، وتعزّ الجانب، وأنهاكم عن معصية الله، وقطيعة الرحم؛ فإن معصية الله تعقب النار، وإن قطيعة الرحم تورث القلة والذلة، وتفرق الجمع، وتدع الدار بلاق، وتطمع العدو، وتبدي العورة.

يا بني قومكم قومكم، إنه ليس لكم فضل عليهم، بل هم أفضل منكم: إذ فضلوكم، وسودوكم، وبلغوا حاجتكم فيما أردتم، فلهم بذلك حق عليكم لا تؤذون شكره، ولا تقومون بحقه.

فإذا طلبوا فاطلبوهم، وإذا سألوا فأعطوهم، وإن لم يسألوا فابتدئوهم، وإن شتموا فاحتملوا لهم، وإذا عشو أبوابكم فلتفتح لهم، ولا تغلق دونهم.

(١) انظر: حلية الأولياء ج ٥/ ٢٧٥، ٢٧٧. وانظر: سيرة مناقب عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي ص ٢٩٧-٢٩٩.

يا بَنِيَّ إِنِّي أَحَبُّ لِلرَّجُلِ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ لِفَعْلِهِ الْفَضْلُ عَلَى لِسَانِهِ، وَأَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ
لِللِّسَانِ الْفَضْلُ عَلَى فَعْلِهِ.

يا بَنِيَّ اتَّقُوا الْجَوَابَ وَرَلَّةَ اللِّسَانِ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الرَّجُلَ يَعْشُرُ قَدَمَهُ، فَيَقُومُ مِنْ رَلَّتِهِ،
فَيَنْتَعِشُ مِنْهَا سَوِيًّا، وَيَزِلُّ لِسَانَهُ فَيُوبِقُهُ وَتَكُونُ فِيهِ هَلَكَتُهُ.

يا بَنِيَّ إِذَا غَدَا عَلَيْكُمْ رَجُلٌ وَرَاحَ فَكُفِّيْ بِذَلِكَ مَسْأَلَةً وَتَذَكُّرَةً بِنَفْسِهِ.

يا بَنِيَّ ثِيَابَكُمْ عَلَى غَيْرِكُمْ أَجْمَلُ مِنْهَا عَلَيْكُمْ، وَدَوَابُّكُمْ تَحْتَ غَيْرِكُمْ أَجْمَلُ
مِنْهَا تَحْتَكُمْ.

يا بَنِيَّ أَحِبُّوا الْمَعْرُوفَ وَافْعَلُوهُ، وَاكْرَهُوا الْمُنْكَرَ وَاجْتَنِبُوهُ، وَآثَرُوا الْعُجُودَ عَلَى
الْبُخْلِ، وَاصْطَنِعُوا الْعَرَبَ وَاكْرَهُوهُمْ: فَإِنَّ الْعَرَبِيَّ تَعْدَهُ الْعَدَّةُ فَيَمُوتُ دُونَكُمْ وَيَشْكُرُ
لَكُمْ، فَكَيْفَ بِالصَّنِيعَةِ إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ فِي احْتِمَالِهَا، وَشَكَرَهَا، وَالْوَفَاءَ مِنْهَا لِصَاحِبِهَا.

يا بَنِيَّ سَوِّدُوا أَكْبَارَكُمْ، وَأَعِزُّوا ذَوِي أَسْنَانِكُمْ تَعْظُمُوا بِذَلِكَ، وَارْحَمُوا صَغِيرَكُمْ
وَقُرْبَاهُ وَالطُّفُوهَ، وَأَجِيرُوا يَتِيمَكُمْ، وَجُودُوا عَلَيْهِ بِمَا قَدَرْتُمْ، وَخُذُوا عَلَى أَيْدِي
سَفَهَائِكُمْ، وَتَعَهَّدُوا جِيرَانَكُمْ، وَفُقَرَاءَكُمْ بِمَا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ، وَاصْبِرُوا لِلْحَقُوقِ، وَاحْذَرُوا
عَارِ عَدُوِّكُمْ عَلَيْكُمْ فِي الْحَرْبِ بِالْأَنَاءِ وَالتَّوَدُّةِ فِي اللَّقَاءِ، وَعَلَيْكُمْ بِالْتِمَاسِ الْخَدِيعَةِ فِي
الْحَرْبِ لِعَدُوِّكُمْ، وَإِيَّاكُمْ وَالْعَجَلَةَ، فَإِنَّ الْمَكِيدَةَ وَالْأَنَاءَ وَالْخَدِيعَةَ أَنْفَعُ مِنَ الشَّجَاعَةِ.

تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ، وَالسُّنَنَ، وَالْفَرَائِضَ، وَتَأَدَّبُوا بِأَدَبِ الصَّالِحِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ
سَلَفِكُمُ الصَّالِحِ، وَلَا تُقَاعِدُوا أَهْلَ الدَّعَاةِ وَالرِّيَّةِ، وَلَا تَخَالِطُوهُمْ وَلَا يَطْمَعَنَّ فِي ذَلِكَ
مِنْكُمْ، وَإِيَّاكُمْ وَالْخَفَةَ فِي مَجَالِسِكُمْ وَكَثْرَةَ الْكَلَامِ، فَإِنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنْهُ صَاحِبُهُ، وَأَدْوَا حَقَّ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ، فَإِنِّي قَدْ أَبْلَغْتُ إِلَيْكُمْ الْوَصِيَّةَ، وَاتَّخَذْتُ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ الْحِجَّةَ... اهـ^(١).

الثامنة: وصية الأشعث بن قيس لبنيه:

إِذَا قَالَ لَهُمْ: يَا بَنِيَّ لَا تَذَلُّوا فِي أَعْرَاضِكُمْ، وَانْخَدَعُوا فِي أَمْوَالِكُمْ، وَلْتُخَفَّ
بَطُونُكُمْ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ، وَظَهَرُوكُمْ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَإِنَّ لِكُلِّ أَمْرٍ تَبْعَةً، وَإِيَّاكُمْ وَمَا
يُعْتَذَرُ مِنْهُ، أَوْ يُسْتَحَى، فَإِنَّمَا يُعْتَذَرُ مِنْ ذَنْبٍ، وَيُسْتَحَى مِنْ عَيْبٍ، وَأَصْلَحُوا الْمَالَ
لِجَفْوَةِ السُّلْطَانِ، وَتَغْيِيرِ الزَّمَانِ، وَكَفُّوا عَنِ الْمَسْأَلَةِ، فَإِنَّهُ كَفَى بِالرَّدِّ مَنَعًا،

(١) انظر: المعمرن والوصايا ص ١٤١-١٤٣.

وأجملوا في الطلب حتى الرزق قدرا، وامنعوا النساء من غير الأكفاء، فإنكم أهل بيت يتأسى بكم الكريم، ويتشرف بكم اللئيم، وكونوا في عوام الناس مالم يضطرب الجبل، فإذا اضطرب الجبل فالحقوا بعشائركم... اهـ^(١).

التاسعة: وصية عباد بن عباد الخواص إلى أهل الستة والجماعة:

إذ قال لهم: اعقلوا، والعقل نعمة، وإنه يوشك أن يكون حسرة، فربّ ذى عقل قد شغل قلبه بالتعمق، فيما هو عليه ضرر عن الانتفاع بما يحتاج إليه، حتى صار عن ذلك ساهيا. ومن فضل عقل المرء ترك النظر فيما لا نظر فيه حتى يكون فضل عقله وبالا عليه في ترك مناقشة من هو دونه في الأعمال الصالحة، أو رجل شغل قلبه ببدعة قلّد فيها دينه رجالا دون أصحاب رسول الله ﷺ، أو رجل اكتفى برأيه فيما لا يرى الهدى إلا فيها، ولا يرى الضلالة إلا تركها يزعم أنه أخذها من القرآن، وهو يدعو إلى فراق القرآن، أفما كان للقرآن حملة قبله وقبل أصحابه يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه وكانوا منه على منار أوضح للطريق؟

وكان القرآن إمام رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ إماما لأصحابه، وكان أصحابه أئمة لمن بعدهم، رجال معروفون منسوبون في البلدان، متفقون في الرد على أصحاب الأهواء مع ما كان بينهم من الاختلاف، وتسكع أصحاب الأهواء برأيهم في سبل مختلفة جانبة عن القصد، مفارقة للصراط المستقيم، فتوّهت بهم أدلاؤهم في مهامه مضلة^(٢)، فأمعنوا فيها متعسّفين في هيئاتهم، كلما أحدث لهم الشيطان بدعة في ضلالتهم انتقلوا منها إلى غيرها؛ لأنهم لم يطلبوا أثر السالفين، ولم يقتدوا بالمهاجرين. وقد ذكر عن عمر أنه قال لزياد: هل تدري ما يهدم الإسلام؟ رلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون.

اتقوا الله وما حدث في قرآنكم، وأهل مساجدكم من الغيبة، والنميمة، والمشى بين الناس بوجهين ولسانين، وقد ذكر أنه من كان ذا وجهين في الدنيا، كان ذا وجهين في النار، يلقاك صاحب الغيبة فيغتاب عندك من يرى أنك تحب غيبته، ويخالفك إلى صاحبك فيأتيه عنك بمثله، فإذا هو قد أصاب عند كل واحد منكما حاجته، وخفى على كل واحد منكما ما يأتي عند صاحبه، حضوره عند من حضر حضور الإخوان، وغيبته عند من غاب عنه غيبة الأعداء.

(١) النظر: العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣/ ١٥٤. (٢) المهامة: المفارقة البعيدة، والبلد المقفر.

من حضر منهم كانت له الأثرة، ومن غاب منهم لم تكن له حرمة. يغيب من حضره بالتزكية، ويغتاب من غاب عنه بالغيبة.

فيا لعباد الله أما في القوم من رشيد ولا مصلح، به يجمع هذا عن مكيدته، ويردّه عن عرض أخيه المسلم؟ بل عرف هواهم فيما مشى به إليهم فاستمكن منهم، وأمكنوه من حاجته، فأكل بدينه مع أديانهم.

فالله الله ذبوا عن حرّم أعيانكم، وكفّوا الستكم عنهم إلا من خير، وناصحوا الله في أمتكم إذا كنتم حملة الكتاب والسنة، فإن الكتاب لا ينطق حتى ينطق به، وإن السنة لا تعمل حتى يعمل بها، فمتى يتعلم الجاهل إذا سكّت العالم: فلم ينكر ما ظهر، ولم يأمر بما ترك؟ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

كأنه لا يعلمه إخوانكم: إن أرضوكم لم تناصحوهم، وإن أسخطوكم أغيتموهم، فلا أنتم ورعتم في السخط، ولا أنتم ناصحتموهم في الرضا. فاتقوا الله فإنكم في زمان رقّ فيه الورع، وقلّ فيه الخشوع، وحمل العلم مفسدوه، فأحبوا أن يعرفوا بحمله، وكرهوا أن يعرفوا بإضاعته، فنطقوا فيه بالهوى، لما أدخلوا فيه من الخطأ، وحرّقوا الكلم عما تركوا من الحق إلى ما عملوا به من الباطل، فذنوبهم ذنوب لا يستغفر منها، وتقصيرهم لا يعترف به.

كيف يهتدى المستدل المسترشد إذا كان الدليل حائراً؟ أحبوا الدنيا، وكرهوا منزلة أهلها، فشاركوهم في العيش، وزايلوهم بالقول، ودافعوا بالقول عن أنفسهم أن ينسبوا إلى عملهم، فلم يتبرّءوا مما انتفوا منه، ولم يدخلوا فيما نسبوا إليه أنفسهم؛ لأن العامل بالحق متكلم وإن سكّت، ولا تكتفوا من السنة بانتحالها بالقول دون العمل بها، فإن انتحال السنة دون العمل بها كذب بالقول مع إضاعة العلم، ولا تعيوا البدع تزنيّاً بعيبها؛ فإن فساد أهل البدع ليس بزائد في صلاحكم، ولا تعيوها بغيا على أهلها، فإن البغي من فساد أنفسكم.

وليس ينبغى للمطبّب أن يداوى المرضى بما يبرئهم ويمرضه، فإنه إذا مرض اشتغل بمرضه عن مداواتهم، ولكن ينبغى أن يلتمس لنفسه الصحة ليقوى على علاج المرض.

فليكن أمركم فيما تنكرون عن إخوانكم نظراً منكم لأنفسكم، ونصيحة منكم لربكم، وشفقة منكم على إخوانكم، وأن تكونوا مع ذلك بعيوب أنفسكم أعنى بعيوب غيركم، وأن يستفطم بعضكم بعضاً النصيحة، وأن يحظى عندكم من بذلها لكم وقبلها منكم، وقد قال عمر بن الخطاب -رضى الله عنه: رحم الله من أهدى إلى عيبي.

تحبون أن تقولوا فيحتمل لكم، وإن قيل لكم مثل الذى قلت غصبتكم، تجدون على الناس فيما تنكرون أمورهم، وتأتون مثل ذلك فلا تحبون أن يؤخذ عليكم.

اتهموا رأيكم ورأى أهل زمانكم، وثبتوا قبل أن تتكلموا، وتعلموا قبل أن تعملوا، فإنه يأتى زمان يشبه فيه الحق بالباطل، ويكون المعروف فيه منكراً، والمنكر فيه معروفاً، فمنكم متقرب إلى الله بما يباعده ومتحجب إليه بما يبغضه عليه.

فعليكم بالوقوف عند الشبهات، حتى يبرر لكم واضح الحق بالبين، فإن الداخل فيما لا يعلم بغير علم آثم، ومن نظر إلى الله نظر الله له، وعليكم بالقرآن فاتموا به، وأموا به، وعليكم بطلب أثر الماضين فيه... اهـ^(١).

العاشرة: وصية عدن بن عبد الله الهذلى لابنه فى محاسبة النفس:

إذ قال له: يا بُنى كن ممن نأيه عن نأى عنه يقين ونزاهة، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة: ليس نأيه بكبر ولا بعظمة، ولا دنوه خداع ولا خلافة،

يقتدى بمن قبله فهو إمام لمن بعده، ولا يعزب علمه، ولا يحضر جهله، ويعفو فيما يتبين له، ويغمض فى الذى له، ويزيد فى الحق الذى عليه، والخير منه مأمول، والشر منه مأمون، إن كان مع الغافلين كتب من الذاكرين، وإن كان مع الذاكرين لم يكتب من الغافلين، لا يفرّ ثناء من جهله، ولا ينسى إحصاء ما قد علمه، إن زكى خاف ما يقولون، واستغفر لما لا يعلمون، يقول: أنا أعلم بى من غيرى، وربى أعلم بى من نفسى، فهو يستبطن نفسه فى العمل، ويأتى ما يأتى من الأعمال الصالحة على وجل، ويظل يذكر، ويمسى وهمّه أن يشكر، يبيت حذراً، ويصبح فرحاً: حذراً لما حذر من الغفلة، وفرحاً لما أصاب من الغنيمة والرحمة، إن عصته نفسه فيما يكره لم يطعمها فيما أحبت، فرغته فيما يخلد، وزهادته فيما ينفد، يمزج العلم بالحلم،

(١) انظر: أبا نعيم فى حلية الأولياء ج ٨/ ٢٨٢.

ويصمت ليسلم، وينطق ليفهم، ويخلو ليغتم، ويخالق ليعلم، لا ينصت لسخير حين ينصت وهو يسهو، ولا يستمع له وهو يلغو، لا يحدث بأمانته الأصدقاء، ولا يكتم شهادته الأعداء، ولا يعمل من الخير شيئاً رياء، ولا يترك منه شيئاً حياء، مجالس الذكر مع الفقراء أحب إليه من مجالس اللهو مع الأغنياء.

ولا تكن يا بُنى ممن يعجب باليقين من نفسه فيما ذهب، وينسى اليقين فيما رجا وطلب، يقول فيما ذهب: لو قدر شيء لكان، ويقول فيما بقي: ابتغ أيها الإنسان شاخصاً غير مطمئن، ولا يثق من الرزق بما قد ضمن، ولا تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن، فهو من نفسه في شك، ومن له إن لم يرحم هلك، وإن سقم ندم، وإن صحح أمن، وإن افتقر حزن، وإن استغنى افتتن، وإن رغب كسل، وإن نشط زهد، يرغب قبل أن ينصب، ولا ينصب فيما يرغب.

يقول: لم أعمل فاتغنّي، بل أجلس فاتمّنّي، يتمنى المغفرة، ويعمل بالمعصية، كان أول عمره غفلة وغرة، ثم أبقي وأقيل العثرة، فإذا في آخره كسل وفرة، طال عليه الأمل فافتتن، وطال عليه الأمد فاغترّ، وأعذر إليه فيما عمرّ، وليس فيما عمرّ بمعذر، عمرّ ما يتذكر فيه من تذكر، فهو من الذنب والنعمة موقر، إن أعطى لم يشكر، وإن منع قال: لم يقدر، أساء البعد واستأثر، يرجو النجاة ولم يحذر، ويبغى الزيادة ولم يشكر، يتكلف ما لم يؤمر، ويضيع ما هو أكثر.

إن يسأل أكثر، وإن أنفق قتر، يسأل الكثير، وينفق اليسير، قدر غير ما قدره لنفسه، فوسّع له رزقه، وخفّف حسابه، فأعطى ما يكفيه، ومنع ما يلهيه، فليس يرى شيئاً يغنيه دون غنى يطغيه، يعجز عن شكر ما أوتى، ويبغى الزيادة فيما بقي، يستبطئ نفسه في شكر ما أوتى، ويبغى الزيادة فيما بقي، ينهى فلا ينتهى، ويأمر بما لا يأتي، يهلك في بغضه، ويقصر في حبه، غره من نفسه حبه ما ليس عنده، ويبغض ما عنده مثله، يحب الصالحين ولا يعمل أعمالهم، ويبغض المسيئين وهو أحدهم، يرجو الآخرة في البغض على ظنه، ولا يخشى العقاب في اليقين من نفسه، لا يقدر في الدنيا على ما يهوى، ولا يقبل من الآخرة ما يسقى، يبادر من الدنيا ما يفنى، ويترك من الآخرة ما يسقى، إن عوفى حسب أنه قد تاب، إن ابتلى عاد يقول في الدنيا قول الزاهدين، ويعمل فيها عمل الراغبين، يكره الموت لإساءته، ولا ينتهى عن الإساءة

فى حياته، يكره الموت لما لا يدع، ويحب الحياة لما لا يصنع، إن منع من الدنيا لم يقنع، وإن أعطى منها لم يشبع، وإن عرضت الشهوة قال: يكفيك العمل، وإن عرض له العمل كسل وقال يكفيك: الورع، لا يذهب مخافته الكسل، ولا تبعثه رغبته على العمل، يرجو الأجر بغير عمل، ويؤخر التوبة لطول الأمل، ثم لا يسعى فيما له خلق، وزهادته فيما أمر به من العمل، ويخشى الخلق فى ربه ولا يخشى الرب فى خلقه، يعوذ بالله ممن هو فوقه، ولا يعيد بالله من هو تحته، يخشى الموت، ولا يرجو الفوت، يأمن ما يخشى وقد أيقن به، ولا يأس مما يرجو وقد تيقن منه، يرجو نفع علم لا يعمل به، ويأمن ضرر جهل قد أيقن به، يسخر بمن تحته من الخلق، وينسى ما عليه فيه من الحق، ينظر إلى ما هو فوقه فى الرزق، وينسى من تحته من الخلق، يخاف على غيره بأدنى من ذنبه، ويرجو لنفسه بأيسر من عمله، يبصر العورة من غيره، ويغفلها من نفسه، إن ذكر اليقين قال: ما هكذا من كان قبلكم.

فإن قيل: أفلا تعمل أنت عملهم؟ يقول: ومن يستطيع أن يكون مثلهم؟ فهو للقول مدل، ويستصعب عليه العمل، يرى الأمانة ما عوفى وأرضى، والخيانة إن أسخط وابتلى، يلين ليحسب عنده أمانة، فهو يرصدها للخيانة، يتعلم للصدقة ما يرصده للعداوة، يستعجل بالسيئة وهو فى الحسنة بطيء، يخفّ عليه الشعر، ويثقل عليه الذكر، اللغو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقراء، يتعجل النوم ويؤخر الصوم، فلا يبيت قائما، ولا يصبح صائما، ويصبح وهمه التصبح من النوم ولم يسهر، ويمسى وهمه العشاء وهو مفطر، إن صلى اعترض، وإن ركع ربض، وإن سجد نقر، وإن سأل الحف، وإن سئل سوف، وإن حدث حلف، وإن حلف حنث، وإن وعد أخلف، وإن وعظ كلح، وإن مدح فرح، طلبه شر، وتركه وزر، ليس له فى نفسه عن عيب الناس شغل، وليس له فى الإحسان فضل، يميل لها ويحب لها منهم العدل، أهل الخيانة له بطانة، وأهل الأمانة له عداوة، إن سلم لم يسمع، وإن سمع لم يرجع، ينظر نظر الحسود، ويعرض إعراض الحقود، يسخر بالمقتّر، ويأكل المدبر، ويرضى الشاهد بما ليس فى نفسه، ويسخط الغائب بما لا يعلم فيه، جرىء على الخيانة، برىء من الأمانة، من أحب كذب، ومن أبغض خلب، يضحك من غير العجب، ويمشى فى غير أدب، لا ينجو منه من جانب، ولا يسلم منه من صاحب، إن

حدثته ملك، وإن حدثك غمك، وإن سؤته سرّك، وإن رافقته حسدك، وإن خالفتك، يحسد من فضله، ويزهد أن يعمل عمله، يعجز عن مكافأة من أحسن إليه، ويفرط فيمن بغى عليه، ولا ينصت فيسلم، ويتكلم بما لا يعلم، يغلب لسانه قلبه، ولا يضبط قلبه قوله، يتعلم للمراء، ويتفقه للرياء، ويظهر الكبرياء، فيظهر منه ما أخفى، ولا يخفى منه ما أبدى، يبادر بالدنيا، ويواكل بالتقوى اهـ^(١).

الحادية عشرة: وصية وهب بن منبه في مكارم الأخلاق:

قال وهب بن منبه: إذا أردت أن تعمل بطاعة الله - عز وجل - فاجتهد في نصحك وعملك لله؛ فإن العمل لا يقبل ممن ليس بتاّصح، وإن التّصح لله - عز وجل - لا يكمل إلا بطاعة الله، كمثّل الثمرة الطيبة ريحها طيب، وطعمها طيب، كذلك مثل طاعة الله: التّصح ريحها، والعمل طعمها، ثم رين طاعة الله بالعلم، والحلم، والفقّه، ثم أكرم نفسك عن أخلاق السفهاء، وعبّدها على أخلاق العلماء، وعودها على فعل الحلماء، وامنعها عمل الأشقياء، والزمها سيرة الفقهاء، واعزلها عن سبيل الخبيثاء. وما كان لك من فضل فأعن به من دونك، وما كان فيمن دونك من نقص فأعنه عليه حتى يبلغه معك، فإن الحكيم يجمع فضوله، ثم يعود بها على من دونه، ثم ينظر في نقائص من دونه، ثم يقوّمها ويزجيها حتى يبلغه: إن كان فقيها حمل من لافقه له، وإذا رأى أنه يريد صحبته ومعونته. وإذا كان له مال أعطى منه من لا مال له، وإن كان مصلحا استغفر الله للمذنب إذا رجا توبته، وإن كان محسنا أحسن إلى من أساء إليه، واستوجب بذلك أجره، ولا يغترّ بالقول حتى يجيء معه الفعل، ولا يتمنى طاعة الله إذا لم يعمل بها. فإذا بلغ من طاعة الله شيئا حمد الله، ثم طلب ما لم يبلغ منها، وإذا علم من الحكمة لم تشبعه حتى يتعلم ما لم يبلغ منها.

وإذا ذكر خطيئته سترها عن الناس، واستغفر الله الذي هو القادر على أن يغفرها، ثم لا يستعين على شيء من قوله بالكذب؛ فإن الكذب في الحديث مثل الأكلة في الخشبة، يرى ظاهرها صحيحا، وجوفها نخرا، ولا يزال من يغترّ بها يظن أنها حاملة ما عليها حتى تنكسر على ما فيها، ويهلك من اغترّ بها، وكذلك الكذب في الحديث، لا يزال صاحبه يغترّ به، ويظن أنه معينه على حاجته، وزائد له في رغبته حتى يعرف ذلك منه، ويتبين

(١) انظر: أبانعيم في الحلية ج٤ / ٢٦٠-٢٦٣.

لذوى العقول غروره، ويستنبط العلماء ما كان يستخفى به عنهم، فإذا اطلعوا على ذلك من أمره، وتبين لهم كذبوا خيره، وأبادوا شهادته، واتهموا صدقه، واحتقروا شأنه، وأبغضوا مجلسه، واستخفوا منه بسرائره، وكتموا حديثهم، وصرفوا عنه أمانتهم، وغيبوا عنه أمرهم، وحذروه على دينهم ومعيشتهم، ولم يحضروه شيئاً من محاضرتهم، ولم يأمّنوه على شيء من سرهم، ولم يحكموه في شيء مما شجر بينهم... اهـ^(١).

الثانية عشرة: وصية معاوية بن أبي سفيان لعبد الرحمن بن الحكم:

قال أبو القاسم بن عساكر:

قال معاوية - رضى الله عنه - لعبد الرحمن بن الحكم وقد وجده يميل إلى قرض الشعر: أراك تعجب بالشعر، فإن فعلت فأياك والتشبيب بالنساء، فإنك تغرى به الشريفة، وترمى به العفيفة، وتقرّ على نفسك بالفضيحة، وإياك والهجاء، فإنك تحقّ به كريماً، وتستشير به لثيماً، وإياك والمدح فإنه كسب الوقاح، وطعمة السؤال، ولكن افخر بمفاخر قومك، وقل من الأمثال ما تزين به نفسك وشعرك، وتؤدّب به غيرك... اهـ^(٢).

الثالثة عشرة: وصية زياد بن أبيه لمن يوثيه عملاً:

قال أبو علي القالى: كان زياد إذا وثى رجلاً عملاً قال له: خذ عهدك، وسرّ إلى عملك، واعلم أنك مصروف رأس ستك، وأنت تصير إلى أربع خلال، فاختر لنفسك، إنا إن وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلنا بك لضعفك، وسلّمناك من معرفتنا أمانتك، وإن وجدناك قوياً خائناً استهنا بقوتك، وأوجعنا ظهرك، وثقلنا غرمك، وإن جمعت علينا الحرميين جمعنا عليك المضرتين، وإن وجدناك أميناً قوياً ردنا في عملك، ورفعنا ذكرك، وكثرنا مالك... اهـ^(٣).

الرابعة عشرة: وصية عتبة بن أبي سفيان لأحد أبنائه:

قال ابن عبد ربّه: قال عتبة بن أبي سفيان لأحد أبنائه عندما بلغ سنّ الشباب: يا بُنى قد تقطعت عنك شرائع الصبا، فالزم الحياء تكن من أهله، ولا يغرنك من اغترّ بالله فيك فمدحك بما تعلم خلافة من نفesk، فإنه من قال فيك من الخير ما لم يعلم إذا

(١) انظر: إبانيم في الحلية ج ٤/ ٣٦-٣٧.

(٢) انظر: الأمالى لأبي علي القالى ج ٢/ ٨٢.

(٣) انظر: تاريخ دمشق الكبير ج ٩/ ٢٩١.

رضى، قال فيك من الشرّ مثله إذا سخط، فاستأنس بالوحدة من جلساء السوء تسلم من شرّ عواقبهم... اهـ^(١).

الخامسة عشر: وصية عبد الملك بن مروان لمؤدّب ولده:

قال ابن قتيبة: قال عبد الملك لمؤدّب ولده: علّمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السفلة فإنهم أسوأ الناس رعة^(٢) وأقلهم أدبا، وأحف شعورهم تغلّظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقرّوا، وعلّمهم الشعر يمجّدوا وينجّدوا، ومرهم أن يستاكوا عرضا، ويمصّوا الماء مصّا، ولا يعبّوه عبّا، وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في ستر لا يعلم به أحد من الغاشية فيهنّوا عليه... اهـ^(٣).

- والله أعلم -

(١) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣/ ١٥٤.

(٢) يقال: فلان سيء الرعة: إذا كان قليل الورع.

(٣) انظر: عيون الأخبار ج ٢/ ١٦٧.

وصايا العصر العباسي

الموضوع
الخامسالأولى: وصية أبي جعفر المنصور إلى ابنه المهدي،

ومنها قوله: يا أبا عبد الله إني ولدت في ذى الحجة، ووليت في ذى الحجة، وقد هجس في نفسي أنني سأموت في ذى الحجة من هذه السنة، والذي حدا بي على الحج ذلك، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى، يجعل لك فيما كرتك، وحزنك مخرجاً، ويرزقك السلامة، وحسن العاقبة من حيث لا تحسب. احفظ يا بني نبينا «محمدًا» ﷺ في أمته يحفظ الله عليك أمورك، وإياك والدم الحرام، فإنه حوب عند الله عظيم، وعار في الدنيا لأرم مقيم، والزم الحلال، فإن ثوابك في الآجل، وصلاحك في العاجل، وأقم الحدود ولا تعتد فيها فتبور، فإن الله لو علم أن شيئاً أصلح لدينه، وأزجر عن معاصيه من الحدود لأمر به في كتابه.

واعلم أن من شدة غضب الله على سلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى في الأرض فساداً مع ما ذخره عنده من العذاب العظيم فقال:

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣].

فالسُّلطان يا بني حبلى الله المتين، وعروته الوثقى، ودين الله القيم، فاحفظه، وحطه، وحضنه، وذبح عنه، وأوقع بالملحدين فيه، واقمع المارقين منه، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم، والمثلات بهم، ولا تجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن، واحكم بالعدل ولا تشطط، فإن ذلك أقطع للشغب، وأحسم للعدو، وأنجع في الدواء، وعف عن الفى فليس بك إليه حاجة مع ما أخلفه لك، وافتتح عملك بصلة الرحم، وبر القربة.

وإياك والأثرة، والتبذير لأموال الرعية، واشحن الثغور، واضبط الأطراف، وأمن السبل، وخص الواسطة، ووسع المعاش، وسكن العامة، وأدخل المرافق عليهم،

واصرف المكاره عنهم، وأعدّ الأموال واخزنها، وإياك والتبذير فإنّ النّوائب غير مأمونة، والحوادث غير مضمونة، وهى من شيم الزمان، وأعدّ الرجال، والكراع^(١)، والجند ما استطعت، وإياك وتأخير عمل اليوم إلى الغد فتدارك عليك الأمور وتضييع، جدّ فى إحكام الأمور النّارلات لأوقاتها أولاً فاولاً، واجتهد وشمر فيها، وأعدّد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل، وباشر الأمور بنفسك، ولا تنسجّر ولا تكسل ولا تفشل، واستعمل حسن الظنّ بربك، وأسى الظنّ بعمالك وكتابك، وخذ نفسك بالتيقظ، وتفقّد من يبيت على بابك، وسهّل إذنك للناس، وانظر فى أمر النزاع إليك، وוכל بهم عينا غير نائمة، ونفساً غير لاهية، ولا تنم فإنّ أباك لم ينم منذ ولى الخلافة، هذه وصيتى إليك والله خليفتى عليك... اهـ^(٢).

الثانية: وصية المأمون بن هارون الرشيد:

لأخيه المعتصم عندما حضره الموت إذ قال له: يا أبا إسحاق أدن منى، واتعظ بما ترى، وخذ بسيرة أخيك فى القرآن، واعمل فى الخلافة إذا طوّقتها عمل المريد لله، الخائف من عقابه وعذابه، ولا تغتر بالله ومهلته، فكان قد نزل بك الموت، ولا تغفل أمر الرعية، الرعية الرعية العوام العوام، فإن الملك بهم ويتعهدك المسلمون، والمنفعة لهم، الله الله فيهم وفى غيرهم من المسلمين، ولا ينهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين، ومنفعة لهم إلا قدمته وأثرته على غيره من هواك، وخذ من أتويانهم لضعفائهم، ولا تحمل عليهم فى شيء، وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم، وقربهم وتأنهم، وعجل الرحلة عنى والقدوم إلى دار ملكك بالعراق، وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم فى كل وقت، والخرمية^(٣) فاغزهم ذا حزيمة وصرامة وجلد، واكنفه بالأموال، والسلاح، والجنود من الفرسان، والرجالة، فإن طال مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأولياك، واعمل فى ذلك عمل مقدّم النية فيه، راجياً ثواب الله عليه، واعلم أن العظة إذا طالت أوجبت على السامع لها، والموصى بها الحجة، فاتق الله فى أمرك ولا تفتن... اهـ^(٤).

(٢) انظر: تاريخ الطبرى ح ٨/ ١٠٥-١٠٦.

(١) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.

(٣) الخرمية: هم أتباع بابك الخرمي وهو: رجل فارسي مجوسى دخل فى الإسلام نظاهراً، ولكنه كان خبيثاً استحل المحرمات هو وأتباعه، وقد حارب المأمون.

(٤) انظر: تاريخ الطبرى ح ٨/ ٦٤٨-٦٤٩.

الثالثة: وصية طاهر بن الحسين لولده إذ قال له:

أحسن الظن بالله - عز وجل - تستقم لك رعيته، والتمس الوسيلة إلى الله في الأمور كلها تستدم به النعمة عليك، ولا تنهض أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل تكشف أمره بالتهمة فإن إيقاع التهم بالبراء، والظنون السيئة بهم مأسئم، واجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك، واطرد عنهم سوء الظن بهم، وارفضه عنهم يُعَنِّكَ ذلك على اصطناعهم، ورياضتهم، ولا يجدنَّ عدو الله الشيطان في أمرك مخمزا، فإنه إنما يُكْتَفَى بالقليل من وهناك فيدخل عليك من الغم في سوء الظن ما ينغص لذادة عيشك... اهـ^(١).

الرابعة: وصية هارون الرشيد لمؤدب ولده الأمين:

قال خلف بن حيَّان الأحمر النحوي (ت ١٨٠ هـ): بعث إلى هارون الرشيد لتأديب ولده محمد الأمين فلما دخلت قال: يا أحمراً إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصيّر يدك عليه مبسوطة، وطاعتك عليه واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين: أقرئه القرآن، وعرفه الآثار، وروِّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره مواقع الكلام وبداهه، وامنعه الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ (بنى هاشم) إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها، من غير أن تخرق به فتميت ذهنه، ولا تمنع في مساحته فيستحلّ الفراغ، وبالفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة... اهـ^(٢).

الخامسة: وصية عبد الملك بن صالح لمؤدب ولده:

إذ قال له: كن على التماس الحظ بالسكوت أحرص منك على التماسه بالكلام؛ فإنهم قالوا: إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم، ولا تساعدني على ما يقيح بي، ولا تردنَّ على الخطأ في مجلسي، ولا تكلفني جواب التسميت والتهنئة، ولا جواب السؤال والتعزية، ودع عنك كيف أصبح الأمير وأمسى؟ وكلّمني بقدر ما استنطقك، واجعل بدل التقريظ لي حسن الاستماع مني، واعلم أن صواب الاستماع أقلُّ من صواب القول، وإذا سمعته أتحدث فأرني فهمك في طرفك

(١) انظر: تاريخ الطبري ح ٨/ ٥٩١.

(٢) انظر: مروج الذهب للمسعودي ح ٣/ ٣٥١.

وتوقَّفك، ولا تتجهَّد نفسك في تطرية صوابي، ولا تستدع الزيادة من كلامي بما تظهر من استحسان ما يكون مني، فَمَنْ أَسْوَأُ حَالًا مِمَّنْ يَسْتَكِدُّ الْمُلُوكَ بِالْبَاطِلِ؟ فَيَدُلُّ عَلَى نَهَاوَنِهِ، وما ظنك بالملك وقد أحلك محلَّ المعجب بما تسمع منه، وقد أحلته محلَّ من لا يُسمع منه؟ وأقلَّ من هذا يُحِبُّ إحسانك، وَيُسْقِطُ حَقَّ حُرْمَتِكَ إِنْ كَانَتْ لَكَ.

إني جعلتك مؤدِّبًا بعد أن كنت معلِّمًا، وجعلتك جليسا مقربًا بعد أن كنت مع الصبيان مباعدا، ومتى لم تعرف نقصان ما خرجت منه لم تعرف رجحان ما دخلت فيه، ومن لم يعرف سوء ما يؤلَّى لم يعرف حسن ما يُلَّى . . . اهـ^(١).

السادسة: وصية أبي جعفر المنصور لعيسى بن موسى:

لَمَّا أَرْسَلَهُ إِلَى مَقَاتِلَةِ الْعُلُوِّيِّينَ الَّذِينَ نَازَعُوهُ بِالْمَدِينَةِ الْمُتَوَّرَةِ، إِذْ قَالَ لَهُ: يَا أَبَا مُوسَى إِذَا صِرْتَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَادْعَ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحُسَيْنِ إِلَى الطَّاعَةِ، وَالْدُخُولِ فِي الْجَمَاعَةِ، فَإِنْ أَجَابَكَ فَاقْبَلْ مِنْهُ، وَإِنْ هَرَبَ فَلَاتَتَّبِعْهُ، وَإِنْ أَبَى إِلَّا الْحَرْبَ فَتَاجِزْهُ، وَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ عَلَيْهِ، فَإِذَا ظَفَرْتَ بِهِ فَلَا تُخَيِّفَنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ، وَعُمَّهُمْ بِالْعَفْوِ، فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الْعَشِيرَةِ، وَذُرِّيَّةُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَجِيرَانُ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ. وَصِيَّتِي إِلَيْكَ لَا كَمَا أَوْصَى بِهَا (يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ) مُسْلِمُ بْنُ أَبِي عَقْبَةَ (ت ٦٣ هـ): حِينَ وَجَّهَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقْتُلَ مَنْ ظَهَرَ إِلَى ثِيَةِ الْوَدَاعِ، وَأَنْ يَبْسُحَهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَفَعَلَ، ثُمَّ أَكْتُبَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ بِالْعَفْوِ عَنْهُمْ وَالصَّفْحِ، فَإِنَّهُمْ أَلَّ اللَّهُ، وَجِيرَانَهُ، وَسَكَانَ حَرَمِهِ وَأَمْنَهُ، وَمَنْبِتَ الْقَوْمِ وَالْعَشِيرَةِ، وَعِظَمَاءَ الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ، فَإِنَّهُ حَرَّمَ اللَّهُ الَّذِي بَعَثَ مِنْهُ «مُحَمَّدًا» نَبِيَّهُ ﷺ وَشَرَفَ بِهِ أَبَاؤُنَا بِتَشْرِيفِ اللَّهِ إِيَّانَا، فَهَذِهِ وَصِيَّتِي . . . اهـ^(٢).

السابعة: وصية عطاء بن أبي رباح إلى عبد الملك بن مروان:

وَذَلِكَ أَنَّ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رِبَاحٍ دَخَلَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى سَرِيرِهِ، وَحَوَالِيهِ الْأَشْرَافُ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ، وَذَلِكَ بِمَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ فِي وَقْتِ حُجَّهِ فِي خِلَافَتِهِ، فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ قَامَ إِلَيْهِ، وَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى السَّرِيرِ، وَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ مَا حَاجَتُكَ؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اتَّقِ اللَّهَ فِي حَرَمِ اللَّهِ وَحَرَمِ رَسُولِهِ فَتَعَاهِدَهُ بِالْعِمَارَةِ، وَاتَّقِ اللَّهَ فِي أَوْلَادِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَإِنَّكَ بِهِمْ جَلَسْتَ هَذَا الْمَجْلِسَ.

(١) انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة ح ٢١/ ٢١. (٢) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٥/ ٨٦-٨٧.

وَاتَّقِ اللَّهَ فِي أَهْلِ الثَّغُورِ فَإِنَّهُمْ حَصْنٌ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَتَفْسُقُ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّكَ وَحْدَكَ الْمَسْتُولُ عَنْهُمْ ، وَاتَّقِ اللَّهَ فِي مَنْ عَلَى بَابِكَ فَلَا تَغْفُلَ عَنْهُمْ ، وَلَا تَغْلُقْ بَابَكَ دُونَهُمْ ، فَقَالَ لَهُ : أَفْعَلْ ، ثُمَّ نَهَضَ وَقَامَ ، فَقَبِضَ عَلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ وَقَالَ لَهُ : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّمَا سَأَلْتَنَا حَوَائِجَ غَيْرِكَ وَقَدْ قَضَيْنَاهَا ، فَمَا حَاجَتُكَ ؟ فَقَالَ : مَالِي إِلَى مَخْلُوقٍ حَاجَةٌ ، ثُمَّ خَرَجَ ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : هَذَا الشَّرَفُ ، وَهَذَا السُّودُ . . . اهـ^(١) .

الثامنة: وصية رجل من المسلمين إلى هشام بن عبد الملك:

فَقَدْ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ ، فَقَالَ هِشَامُ : مَا لَكَ لَا تَتَكَلَّمُ ؟ قَالَ : هِيَّةُ الْمَلِكِ ، فَلَمَّا رَجَعَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ قَالَ لَهُ هِشَامُ : تَكَلَّمْ وَإِيَّاكَ وَمَدَحِنَا .
فَقَالَ : لَسْتُ أَمْدَحُكَ ، وَإِنَّمَا أَحْمَدُ اللَّهَ فِيكَ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ الدُّنْيَا دُمَّتْ بِأَعْمَالِ الْعِبَادِ ، إِذَا أَسَاءُوا ، وَلَمْ تُحْمَدْ بِأَعْمَالِهِمْ فِيهَا إِذَا أَحْسَنُوا ، فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكْتَمْ بِمَا فِيهَا فَتَذَمُّ ، وَلَكِنْ إِنَّمَا جَهَرَتْ بِهِ فَأَخْذَهَا مِنْ أَخْذِهَا بِذَلِكَ وَهِيَ عَلَيْهِ ، وَتَرَكَهَا مِنْ تَرَكِهَا لِذَلِكَ وَهِيَ لَهُ .
وَأَنَّ الدُّنْيَا بَادَاتُ أَهْلِهَا بِأَنَّهَا مَمْلُوكَةٌ لِمَنْ أَخْذَهَا ، وَمُسْفَارَةٌ مِنْ صَحْبِهَا ، وَنَحْنُ بِهَا عَمْرَانٌ مِنْ عَمْرِهَا ، فَمَنْ زَرَعَ فِيهَا سُرُورًا حَصَدَ حُزْنًَا ، وَمَنْ أَثَرَ فِيهَا هَوًى اجْتَنَى نَدَامَةً ، وَإِنَّمَا هِيَ لِمَنْ زَهَدَ فِيهَا الْيَوْمَ وَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَأَثَرَ الْحَقِّ عَلَيْهَا ، وَأَخْذَهَا مِنْ أَخْذِهَا بَعْدَ الْبَيَانِ مِنْهَا ، وَالْإِخْبَارِ عَنْ نَفْسِهَا ، فَغَرَّ نَفْسَهَا وَسَمَّاهَا غُرَّارَةً ، وَكَذَّبَ نَفْسَهَا وَسَمَّاهَا كَذَّابَةً ، وَزَهَدَ فِيهَا آخَرُونَ فَصَدَّقُوا مَقَالَهَا ، وَرَأَوْا أَثَارَهَا فِي رَدِّ أَعْمَالِهَا ، وَأَخْذُوا مِنْهَا قَلِيلًا وَقَدَمُوا فِيهَا كَثِيرًا ، وَسَلَمُوا مِنَ الْبَاطِلِ ، وَصَارَتْ لَهُمْ عَوْنًا عَلَى الْحَقِّ فِي غَيْرِهَا ، فَلَمْ تَحْمَدْ بِإِحْسَانٍ مِنْ أَحْسَنٍ فِيهَا وَهِيَ لَهُ ، وَدُمَّتْ بِإِسَاءَةٍ مِنْ أَسَاءٍ فِيهَا وَهِيَ عَلَيْهِ . . . اهـ^(٢) .

التاسعة: وصية طاووس اليماني إلى هشام بن عبد الملك:

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَدَّمَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مَكَّةَ الْمَكْرَمَةَ حَاجًّا ، قَالَ : اتُّنَوْنِي بِرَجُلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ، فَقِيلَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ تَفَانُوا .
فَقَالَ : مِنَ التَّابِعِينَ ، فَأَتَانِي بَطَاوُوسُ الْيَمَانِيِّ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ خَلَعَ نَعْلَيْهِ بِحَاشِيَةِ بَسَاطِهِ ، وَلَمْ يَسْلَمْ عَلَيْهِ بِأَمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنْ قَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا هِشَامُ ، وَلَمْ يَكُنْهُ ، وَجَلَسَ بِإِزَائِهِ وَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا هِشَامُ ؟

(١) انظر: الذهب المبيوك ص ١٦٤ ، وسير اعلام النبلاء ج ٥ / ٨٤ .

(٢) انظر: الذهب المبيوك ص ١٨٧ - ١٨٨ .

فغضب هشام غضبا شديداً، حتى همّ بقتله. فقيل له: أنت في حرم الله، وحرم رسوله ﷺ، ولا يمكن ذلك، فقال: يا طاووس ما الذي حملك على ما صنعت؟ قال: ما الذي صنعت؟ فارداد غضبا وغيظا، فقال هشام: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تقبل يدي، ولم تسلم بإمرة المؤمنين، ولم تكني، وجلست بإرائي بغير إذن، وقلت: كيف أنت يا هشام؟

فقال: أما ما فعلت من خلعت نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم - خمس مرات -، ولا يعاقبني، ولا يغضب علي.

وأما قولك: لم تقبل يدي، فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يقول: لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا أمرته من شهوة، أو ولده من رحمة، وأما قولك لم تسلم على بإمرة المؤمنين، فليس كل الناس راضين بإمرتك فكرهت أن أكذب، وأما قولك: لم تكني، فإن الله سمى أنبياءه وأوليائه فقال: يا داود، يا يحيى، يا عيسى، وكنت أعداءه فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]. وأما قولك: جلست بإرائي، فإني سمعت أمير المؤمنين علياً - رضي الله عنه - يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام. فقال هشام: عظمي،

فقال: سمعت من أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - يقول: إن في جهنم حيات كالقلال، وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته، ثم قام وهرب... اهـ^(١).

العاشرة: وصية شقيق بن إبراهيم البلخي لهارون الرشيد:

وذلك: أن شقيقا البلخي قدم بغداد على عهد هارون الرشيد فلما علم به أمر بإحضاره فلما دخل عليه قام هارون من مجلسه، وأجلسه إلى جانبه، وقال: يا شقيق ما أشوقني إليك وأحب أن توصني، فقال: يا أمير المؤمنين إن الله أنزلك منزلة أبي بكر الصديق، ويطلب منك الصدق، وأنزلك منزلة الفاروق ويطلب منك الفرق بين الحق والباطل، وأنزلك منزلة عثمان ويطلب منك الحياء والسخاء، وأنزلك منزلة علي ويطلب منك العلم والحلم.

(١) انظر: الجليس الصالح والانیس الناصح ص ٢١٧.

فأطرق هارون ساعة، ثم رفع رأسه فقال: كيف لي أن أعمل بالصدق؟ قال: تعلم أنك أجير ولست بأمير، وأن تعلم أنك فقير ولست بغني، وأن تعلم أنك عبد ولست بحر، فأطرق هارون، ثم رفع رأسه، وقال: كيف لي أن أفرق بين الحق والباطل؟

قال: أن تجعل الناس على ثلاثة أصناف: صنف أكبر منك، وصنف أصغر منك، وصنف مثلك: فاجعل كبير المسلمين عندك والدا، وأوسطهم أخا، وأصغرهم ولدا، فوقر أباك، وأنصف أخاك، وتحنن على ولدك، فأطرق هارون ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: كيف أعمل بالحياء والسخاء؟

قال: أن تستحي من مولاك كما تستحي من جيرانك، وأن تجعل نفسك وكيلا لجميع الخلائق في هذا المال الذي عندك، فأطرق هارون ساعة، ثم رفع رأسه، وقال: كيف لي أن أعمل بالعلم والحلم؟

قال: أطع مولاك، واعص هواك، فقال هارون: زدني. قال: اعلم أن الله خلق نارا فسمّاها جهنم وجعلك بوابها، وأعطاك بيت المال، والسيف، والسوط، وأمرك أن تعطى بيت المال من مال إلى المعصية لأجل الفقر كيلا يدخلها، وأمرك أن تقتل بالسيف من قتل نفسا بغير نفس، أو بغير حق كيلا يدخلها، فقال هارون: أحرقتني يا (شقيق) زدني، فقال: اعلم يا أمير المؤمنين أنك عَيْن، وعمالك أنهار، فإن صفت العين صفت الأنهار، وإن تكذرت العين تكذرت الأنهار، وإن لم يكفك هذا فلا مطمع لي بك. فبكى هارون، ثم نزع خاتمه، وألقاه إليه، وقال: اعمل في هذه الأمة بالسنة. قال شقيق: على أن تقضى لي حاجتي، قال: حاجتك مقضية قال: لا تدعني حتى آتيك، ولا تعطني حتى أسألك، قال: قد قضيت حاجتك، وطرح الخاتم، وخرج، وقال: لا آتيك أبدا، ولا أسألك أبدا. اهـ^(١).

(١) انظر: المجلس الصالح، والأيس الناصح ص ٢١٦.

الموضوع
السادس

مواظب مفيدة

أولاً: الدعوة إلى الإسلام:

إن من أولى الخطوات التي قام بها الرسول ﷺ في مجال تبليغ رسالته إلى الناس : أن دعاهم إلى الإسلام ، والتصديق به في بيان مشرق ، وبلاغة معجزة ، أسرت العقول بجمالها ، واستولت على القلوب بقوة تأثيرها ، يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه .

فهى إن لم تكن من الوحي ، ولكنها جاءت من سبيله ، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله .

وقد جسد الجاحظ هذه الخاصية في بيان الرسول ﷺ فوصف كلامه بقوله : هو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف . إلى أن قال : لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أقصد لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين في فحوى من كلامه ﷺ . . . اهـ (١) .

وجاءت دعوة الرسول ﷺ إلى الإسلام حافلة بالقيم الخالدة ، والمعاني السامية ، التي تهدى البشرية إلى رضوان الله تعالى في أساليب سهلة واضحة ، وألفاظ رشيقة سلسلة .

وقد قال أحد الباحثين وهو الدكتور بكرى شيخ أمين : هذه الفصاحة من نبينا «محمد» ﷺ توفيق من الله تعالى ، فهو الذي بعثه الله في قوم يقادون من الستهم ، ولهم المقامات المشهودة في البيان ، والفصاحة ، ولا بد له من لسان أفصح من الستهم لينقادوا له ويخضعوا .

كل هذا جعل الحديث النبوي في مرتبة من الفصاحة لا تداني ، ودفع الأدباء إلى استظهار عبارات الرسول ﷺ ، والاقتباس منها ، والاستعانة بها في شعرهم ، ونثرهم ، وخطبهم ؛ لتسمو فوق كلام الناس ، وليكون لها من العقل الأفضل ما ليس لكلام الآخرين . اهـ (٢) .

(١) انظر: البيان والتبيين للجاحظ ج ٢/ ١٧-١٨ .

(٢) انظر: أدب الحديث النبوي للدكتور/ بكرى شيخ أمين . ط دار الشروق (بيروت) ص ١٠٤ .

ثم لم يدع النبي ﷺ أمراً من أمور الدنيا والآخرة إلا نبّه الناس إليه، ودعاهم إلى خيره، ونهاهم عن شره، كل ذلك أعلنه لهم منذ أن أمره الله تعالى بالجهر بالدعوة إلى الإسلام في قوله تعالى:

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿١٥﴾ (الحج: ٩٣-٩٤)

ثم توالت آيات القرآن الكريم تنادي المؤمنين بالدعوة إلى الله - تعالى -، وتحث عليها؛ وتبين أنها قوام حياة هذه الأمة، وإن نظرة في خطبته ﷺ لما نزل عليه قول الله - تعالى -:

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

لَتُبَيِّنَ لِلْمُتَمَاتِلِ قُدْرَتَهُ - عليه الصلاة والسلام - على استجماع القلوب، والأذهان، في أحاديثه للناس، وطريقته في عرض دعوته إليهم، واعتماده ﷺ على الجانب

الوجداني في الإقناع.

فعن ابن عباس (رضي الله عنهما - ت ٦٨ هـ) قال: لما نزلت: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، وجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش، حتى إذا اجتمعوا، وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب فقال النبي ﷺ: «أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟»، قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا الصدق.

قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب - عليه لعنة الله -:

تَبَا لَكَ سَائِرُ الْيَوْمِ هَذَا جَمَعْتَنَا؟

فنزل قول الله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ ﴾ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ [المسد: ١-٢].

لقد أعلن النبي ﷺ رسالته إليهم من خلال موقف شعوري حين حفز انتباههم بالمثل البليغ الذي ساقه بوجود الخيل المغيرة عليهم، للتدليل على مدى ثقتهم به - عليه الصلاة والسلام -، ثم استخلص منهم الاعتراف بمصداقية قوله، وعدم الشك فيما يقول.

وفي خطبة النبي ﷺ أول جمعة صلاها بالمدينة المنورة نجاه - عليه الصلاة والسلام - يقول: «الحمد لله، أحمدده، وأستعينه، وأستغفره، وأشهد به، ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً

عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور، والمواظبة على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط، وضل ضلالاً بعيداً، اهـ^(١).

يتضح من استعراض خطبه ﷺ التي تناولت الدعوة إلى الإسلام، والتمسك به أنها تأثرت بالمرحلة والبيئة التي قيلت فيها: إذ نستطيع أن نتيين أن خطبه - عليه الصلاة والسلام - في مكة كانت تركز على التوحيد، وغرس العقيدة، وتجنب عبادة الأوثان في عبارات موجزة مركزة.

وأن خطبه في المدينة التي تناولت الدعوة إلى الإسلام اتسمت بسعة القول، وقدر من التحليل والشرح؛ وذلك لأن المدينة ضمت الكثير من فئات المجتمع، والقبائل، والأحلاف. ونهج الصحابة - رضوان الله عليهم - منهج الرسول ﷺ في اتخاذ الخطب وسيلة للدعوة إلى الإسلام، والإعلان عن مبادئه... اهـ^(٢).

ثانياً: الدعوة إلى العلم:

جاء الإسلام يدعو إلى الأخذ بأسباب العلم، ويتشمل البشرية من ظلام الجهل، وضلال الشرك، إلى نور الحق والإيمان، ولذا كانت أول آية نزلت على رسول الله ﷺ قول الله - تعالى -:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥].
ومدح الله - سبحانه وتعالى - العلم وأهله في كتابه الكريم بآيات كثيرة، وكذلك أثنى رسول الله ﷺ على العلماء، وبين مكانتهم في الإسلام، وحث على طلب العلم، والاشتغال به، والتزود منه، والحرص عليه.

ولما كانت حاجة المسلم إلى العلم ماسة لمعرفة أحكام دينه، وأصول شريعته، ومعرفة الحلال والحرام، وما يقربه من ربه: فقد انبرى العلماء يتناولون في خطبهم حث الناس على التعلم حتى يؤدوا فرائض الله صحيحة، ويعرفوا حدود ما أمر الله، وما نهى عنه.

(١) انظر: تاريخ الطبري ط بيروت ج ٢/ ٣٩٤.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد) ج ٢/ ١٧٣.

وأدرك العلماء أن في انتشار العلم بين الناس ما يقوّي العقيدة في نفوسهم، ويحملهم على طاعة الله، والتزام شرعه، وتجنب المعاصي.

فكانت الغاية من الدعوة إلى العلم في بداية الأمر، هي اكتساب العلم الديني لمعرفة حدود الله، ووجد الخطباء من أحاديث الرسول ﷺ في الحث على طلب العلم معينا لا ينضب، فمن ذلك قول النبي ﷺ:

«تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه حسنة، وطلبه عبادة، وبذله لأهله قربة، والعلم منار سبيل أهل الجنة، والأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والزّين عند الأخلاء، والسلاح على الأعداء، يرفع الله به قوما فيجعلهم قادة تقتفى آثارهم، ويقتدى بفعلهم، والعلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلمة، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ بالعبد منازل الأخيار، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، الفكر فيه يعدل الصيام، ومذاكرته تعدل القيام، وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام» اهـ^(١).

ففي ذلك ما يدل على تشييع الصحابة بفكرة العلم في الإسلام، وأهميته للناس، ودعوته إليّاهم للأخذ بأسباب العلم، والتفقه في الدين.

ولذا نجد علياً - رضى الله عنه - يوازن بين العلم والمال، فيجعل المال خادما للعلم، فيقول: العلم خير من المال؛ لأن المال تحرسه، والعلم يحرسك، والمال تفيه النفقة، والعلم يذكرك على الإنفاق، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه، مات خزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة، وأثارهم في القلوب موجودة... اهـ^(٢).

وفي ذلك حث صريح على طلب العلم، وتقديمه على المال، وبيان منزلة العلماء ليُقبل الناس على العلم بنفس راضية، ورغبة ملحة؛ ففيه الرفعة في الدنيا والآخرة.

ولذا نجد عبد الملك بن مروان يقول لبنيه: يا بنيّ تعلّموا العلم، فإن استغنيتم كان لكم كمالا، وإن افتقرتم كان لكم مالا... اهـ^(٣).

وقد أثمرت هذه الدعوة بين الأفراد إلى مختلف الجوانب الفكرية التي شاعت في عصور الإسلام الزاهية.

(١) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢/ ٢١٥-٢١٦.

(٢) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢/ ٢١٢.

ثالثاً: الحث على الجهاد

تواردت الأدلة من الكتاب والسنة على بيان أهمية الجهاد، وبيان فضله في حياة الأمة، وأنه أساس عزها، ومجدها، وسعادتها في الدنيا والآخرة.
يقول الله - سبحانه وتعالى -:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُجِيبُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَزْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَآخِرَىٰ تَحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

[الصف: ١٠-١٣]

ويقول الله - سبحانه وتعالى -:

﴿ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١]

وكذلك نجد الأحاديث الصحيحة تبشر المجاهدين بالثواب الجزيل، كما نجد الرسول ﷺ يقف في الناس خطيباً يوم أحد، فيقول: «يا أيها الناس أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه من العمل بطاعته، والتناهي عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذي عليه، ثم وطن نفسه على الصبر واليقين والجد والنشاط، فإن جهاد العدو شديد كربه، قليل من يصبر عليه إلا من عزم له على رشده.

إن الله مع من أطاعه، وإن الشيطان مع من عصاه، فافتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله، وعليكم بالذي أمركم به؛ فإنني حريص على رشدكم، إن الاختلاف والتنازع، والتشيط من أمر العجز والضعف مما لا يحب الله؛ ولا يعطى عليه النصر» (١).

كما كان النبي ﷺ يحض المؤمنين على الجهاد، ويحرضهم على لقاء العدو قبل وقوع المعركة؛ حفزاً لهممهم، وتثبيتاً لقلوبهم: فقد كان يعقب على المعركة بخطبة

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ج ١/ ٥٦.

يبين الكثير من الأحكام للمجاهدين ، كما فعل في خطبته يوم فتح مكة حيث بين فيها كثيراً من الأحكام في خدمة البيت الحرام ، وأنواع القتل ، والدية ، ثم التفت إلى قريش التي ألقت عصاها بين يديه ، فقال لهم : «يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم؟» قالوا: خيراً أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: «أذهبوا فأنتم الطلقاء» اهـ^(١).

ومضى الخلفاء الراشدون ، وقادة الجيوش الإسلامية التي حملت رايات الجهاد إلى أصقاع العالم على هذا المنوال : يعثون الطاقات ، ويحفزون الهمم ، ويستثيرون الحماس ، ويدكرون المجاهدين بما أعدّه الله لهم من الأجر والثوبة .

فكانت هذه الكلمات الصادقة المؤثرة التي تنبعث على السنة الخلفاء ، والقادة العسكريين مؤجّجة لعواطف الخير ، والبرّ في نفوس الجند والمجاهدين ؛ فخاضوا المعارك ببسالة لا يَلَوْن على شيء إلا نشر هذا الدين ، وإعلاء كلمة التوحيد في كل أصقاع المعمورة . في يوم اليرموك جمع خالد بن الوليد الفرق الإسلامية في جيش واحد ، وجمع الأمراء فخطبهم وقال : إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ، أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ؛ فإنّ هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية ، بل على تساند وانتشار ، وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه رأى واليكم ومحبته . . . اهـ^(٢).

فنحن نجد أن خالداً قد رسم للمجاهدين خطة الدفاع في وجه عدوهم ، وطريقة الهجوم عليهم بما يحقق لهم النصر على أعدائهم .

وهذا عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- لما تجمعت جيوش الفرس بنهاوند ، وأخبره سعد بن أبي وقاص بذلك قام عمر على المنبر خطيباً ، فأخبر الناس ، واستشارهم ، وقال : هذا يوم له ما بعده من الأيام ، ألا وإني قد هممت بأمر وإني عارضه عليكم فاسمعوه ، ثم أخبروني وأجزوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، ولا تكثرُوا ولا تطيلوا ، أفمن رأى أن أسير فيمن قبلي ، ومن قدرت عليه ، حتى أنزل منزلاً وسطاً بين هذين المصرين ، فاستنفرهم ، ثم أكون لهم رداءً ، حتى يفتح الله عليهم ، ويقضى ما أحب ؟ فأجابه الصحابة براءيهم . . . اهـ^(٣).

(١) انظر : كتاب المغازي لابن واقد ج١/ ٢٢١-٢٢٢ .

(٢) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ج٤/ ٣٢ .

(٣) انظر : تاريخ الطبري ج٣/ ٣٩٥ .

في هذه الخطبة ما يدل على الشورى الإسلامية التي عمت أرجاء الحياة حتى لم تخل منها سياسة الحروب على الرغم من طبيعتها العسكرية، وفيها ما يدل على حرص عمر - رضى الله عنه - على صلابة الجبهة الداخلية.

وكلما مضينا مع الزمن وجدنا هذا التراث الخطابي يتزايد يوما بعد يوم؛ لتعدد نواحي الجهاد.

ولهذا نجد علياً بن أبي طالب - رضى الله عنه - يقول: إن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه ألبسه الله ثوب الذل، ولزمه الصغار، وسيم الخسف، ومنع النصف، ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، سرا وإعلاناً، وقلت لكم: أغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم، وثقل عليكم قولي، واتخذتموه وراءكم ظهرياً، حتى شئت عليكم الغارات: هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار وقتل حسناً، أو ابن حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها، وقتل منكم رجالاً صالحين، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المسلمة، والأخرى المعاهدة فيتزعج حجلها، وقلبها، ورعاثها، ثم انصرفوا واقرين ما كلم رجل منهم كلاماً، فلو أن امرأة مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان عندي به ملوماً، بل كان به عندي جديراً... اهـ^(١).

وهكذا نجد علياً - كرم الله وجهه - يحث أصحابه على قتال سفيان بن عوف الأزدي الذي قتل حسناً البكري واليه على الأنبار، واستباح حمى المسلمين، واستاق خيلهم، وغنم مكاسبهم، واعتدى على حرمتهم، فيذكرهم بالجنة التي تطمح إليها نفوس المؤمنين، ويجعل الجهاد باباً من الأبواب الموصلة إليها، ثم يبين الآثار المترتبة على ترك الجهاد، وما يلحق الفرد والمجتمع من الذل والصغار، ويندبهم إلى قتال أعدائهم؛ ليكونوا البادئين في القتال، ويقرر مبدأ عسكرياً حين قال: والله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا.

ويستثير همهم بذكر ما أوقعه العدو في المسلمين من خسائر، وغنائم، واعتداء على الحرمات، والأعراض؛ ليستثير حميتهم ويبعث عزائمهم، ويوحّد صفوفهم لقتال هؤلاء المارقين.

ولمّا صالح قتيبة بن مسلم أهل خوارزم وسار إلى السغد سنة ثلاث وتسعين هجرية خطب الناس فقال: إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه ممكن، وهذه السغد شاغرة برطبها قد نقضوا العهد الذي كان بيننا، ومنعونا ما كنّا صالحنا عليه طرّحون وصنعوا ما بلغكم، فسيروا على بركة الله فإنّي أرجو أن تكون خوارزم، والسغد كالنضير، وقریظة. اهـ^(١).

فنحن نجد قتيبة يذكر الناس بمجدهم، ومكانتهم، ويحثهم على طلب الثواب من الله - تعالى -.

رابعاً: التذكير بالثواب والعقاب:

كثيراً ما كانت المساجد في القرون الأربعة الأولى من الهجرة النبوية حافلة بالخطب الدينية التي تذكر المؤمنين بما وعدهم الله - تعالى - من الثواب، ووعيده للكافرين بالعقاب، وفي مقدمة هذه الخطب: خطب النبي ﷺ، فقد كانت المنهل العذب الذي نهل من معينه الصحابة، والتابعون، وسائر الأمة الإسلامية، وكان التركيز على هذا النوع من الخطب؛ لأنه الثمرة الطبيعية للإيمان، والنتيجة الصادقة لاعتناق الإسلام، ولأنه الأصل الأصيل في نظرية الأديان، إذ إن من لوازم الإيمان بالله الاعتقاد بوقوع الثواب لمن أطاعه، وحصول العقاب لمن عصاه، ولن نجد عقيدة تقرر الإيمان بالله لا تصل إلى الإيمان بثمرات العمل، وما يحصل عليه المرء في آخرته من ثواب وجزاء.

ولهذا نجد الرسول ﷺ قد حرص كل الحرص على إرساء هذا المبدأ، وتقديره في نفوس المؤمنين حتى يصل منه إلى صحة العقيدة، وإلى صدق الإيمان، وما يترتب على ذلك من تقويم السلوك، وتهذيب النفوس، وتربية الأخلاق.

ومن ذلك قوله ﷺ في أول خطبة خطبها بالمدينة المنورة بعد أن حمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله: «أما بعد أيها الناس فقدّموا لأنفسكم تعلمن والله ليصنعن أحدكم ثم ليدع غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربّه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك؟ وأتيتك مالا، فما قدمت لنفسك؟ فينظر يمينا وشمالا فلا يرى شيئا، ثم ينظر قدّامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشقّ تمره فليفعّل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة؛ فإن بها تجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» اهـ^(٢).

(١) انظر: تاريخ الطبري ج١/ ٤٧٢.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام ج١/ ١١٨.

من هنا نجد أن الرسول ﷺ قد ربط السلوك في الدنيا: صالحا كان، أو سيئا بالجزاء في الآخرة ثوابا كان أو عقابا، فمن أعرض عن الرسالة، وكفر بنعمة الله، ولم يؤد حق الله عليه، فلن يجد قدامه غير جهنم تلهج وجهه، وتحرق جسده، أعادنا الله من ذلك، ومن قدم خيرا أو عمل صالحا - ولو قليلا - فإنه يثاب بقدره حتى تبلغ الحسنه عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

ومن ذلك قول الخنساء - رحمها الله تعالى - تعرض أولادها على القتال في معركة القادسية - وكانوا أربعة رجال: تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين. واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله - عز وجل -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فإذا أصبحتم غدا فاغدوا على قتال عدوكم مستبصرين، والله على أعدائه مستفترين، فلما بلغها خبر استشهادهم قالت: الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم، وأرجو من ربّي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته... اهـ (١).

ولعل من أبرز الجوانب التي تستوقف الناظر في الخطب التي تناولت الحديث عن الثواب والعقاب أمرين:

الأمر الأول: كثرة الحديث عن الزهد، والدعوة إليه بتهوين شأن الدنيا، والتقليل من بهجتها، وكف الناس عن الانشغال بها، إذ إن ذلك مدعاة لنسيان اليوم الآخر، والحد من القيام بالواجبات والقرائض، والزهد في الدنيا يحد من هذه الأمور، ويقلل من الانشغال بملذاتها، ويساعد على الاستعداد لليوم الآخر.

ونجد هذه الفكرة شائعة لدى أكثر الخطباء، بل تشغل النصيب الأوفى من خطبهم، ودعوتهم على نحو ما نجد، فنجد قُطْرُباً يحذّر من الدنيا، ويزهد فيها، ويركز على الجانب السيء منها الذي يكبر الخطوب، والنوائب، فلا يكاد يرى غيره فيما يقع عليه حسه وبصره، رغبة في تفسير الناس منها، والتقليل من شأنها؛ ليتجهوا إلى زاد الآخرة، والاستعداد لما بعد الموت.

وخطب الحسن البصري - رحمه الله - فقال: يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تريحهما جميعا، يا ابن آدم إذا رأيت الناس في الخير فتنافس فيه، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم عليه، الشواء هاهنا قليل، والبقاء هناك طويل. ذهبت الدنيا بحليتها، وبقيت الأعمال قلائد في أعناق بني آدم، فيا لها موعظة لو وافقت من القلوب حياة، أعدوا الجواب فإنكم

(١) انظر: خزنة الأدب، لعبد القادر البغدادى ج١/ ٣٩٦.

مستولون، المؤمن من لم يأخذ دينه على رآيه، ولكنه أخذ من قبل ربه، إن هذا الحق قد مهد أهله، وحال بينهم وبين شهواتهم، وما يصبر عليه إلا من عرف فضله، ورجا عاقبته، فمن حمد الدنيا ذم الآخرة، وليس يكره لقاء الله إلا مقيم على سخطه. اهـ^(١).

والأمر الثاني: الإكثار من ذكر الموت باعتباره نهاية كل حي، والتخويف مما بعد الموت، والاستعداد له بعمل الصالحات، والتفكير في سير السابقين، وما آلوا إليه، وذكر الآباء والأسلاف والعظماء والأمجاد.

وتتناول هذه القضية من زاوية إيمانية يكمل النظرية السابقة وهي الزهد في الدنيا، والاستعداد للقاء الله، وطلب الثواب منه، كما في خطبة النبي ﷺ إذ قال:

«أيها الناس إن لكم معالم فانتبهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتبهوا إلى نهايتكم، فإن المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع به، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار» اهـ^(٢).

وعلى هذا النحو كثير من خطب عمر بن عبدالعزيز، والحسن البصري -رحمهما الله- التي أخذت بمجامع الناس، وهزت عواطفهم، وأبكت عيونهم.

يقول عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله -: ما الجزع مما لا بد منه، وما الطمع فيما لا يرجى، وما الحيلة فيما لا يزول؟، وإنما الشيء من أصله، فقد مضت قبلنا أصول نحن فروعها، فما بقاء فرع بعد أصله؟

إنما الناس في هذه الدنيا أغراض تُتَّضَلُّ فيها المنايا، وهم فيها نهب للمصائب، مع كل جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص، لا يتألون نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يعمر من معمر يوماً من عمره إلا يهدم آخر من أجله، وأنتم أعوان الحقوق على أنفسكم، فأين المهرب مما هو كائن؟ وإنما نتقلب في قدرة الطالب، فما أصغر المصيبة اليوم مع عظيم الفائدة غداً. . . اهـ^(٣).

(١) انظر: البيان والتبيين للجاحظ ج٣/ ١٣٢-١٣٤.

(٢) انظر: البيان والتبيين للجاحظ ج١/ ٣٠٢.

(٣) انظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن علي بن الحسين السعدي ج٣/ ١٨٤.

وانظر: سيرة وصانق عمر بن عبدالعزيز لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي ص ٢٥٠.

وانظر: الأمالي لأبي علي القالي ج٢/ ١٠٠.

خامساً: الوعظ في مجالس الخلفاء:

مما تحسن الإشارة إليه أن المواظب لصيقة بالخطيب؛ لأن الخطيب أحياناً يجد في الموعظة طريقاً رحباً يرقق قلوب سامعيه، ويشد انتباههم، ويكبح جماح من انحرف منهم، إلا أن المواظب أوسع باباً من الخطبة، وأسرع إلى ملازمة القلوب، ومخاطبة الوجدان، ففي الوقت الذي تتنوع فيه موضوعات الخطبة: ما بين دينية، أو اجتماعية، أو وعظية، نجد الموعظة أخذت جانباً من اهتمامات بعض الخطباء، ثم تنفرد في مواقف أخرى لا تحتاج إلى اعتلاء المنابر، بل تكون همسة في أذن أحد المسئولين، ومن هنا تكتسب الموعظة صفة خاصة في كونها أقرب إلى القلب.

وقد اشتمل القرآن الكريم على قدر كبير من المواظب، فهو يقصّ علينا من أحوال الأمم الغابرة التي ذهبت جزاء عصيانها لله - عز وجل -، أو التي أطاعت ربها، واتبعت رسله، فجعل لها لسان صدق في الآخرين.

ولقد رأينا القرآن عندما يعرض تلك القصص يعقب بأخذ العبرة والعظة يشير إلى ذلك قول الله - تعالى - :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].
وكذلك نجد السنة المطهرة تنهج منهج القرآن الكريم في هذا، ولا عجب أن يأخذ الرسول ﷺ بمجامع حسن الصحابة - رضوان الله عليهم -، وأن ينفذ إلى أعماقهم بموعظته، حتى توجل القلوب، وتذرف العيون.

وقد وجدت هذه الموهبة في كثير من الخلفاء في الدولتين: الأموية والعباسية؛ ولما كان عليه هؤلاء الخلفاء من ثقافة دينية عميقة، وامتلاك لخاصية البلاغة، وقدرة على التأثير في الناس، فكانت لهم المواقف والمقامات في الوعظ، حدّوا فيها حدّو النبي ﷺ، فيما كانوا يقومون به من مهامهم، كإمامة الناس، والخطب في الجمع والأعياد، وكلما دعت الحاجة إلى إنكار منكر، أو تأييد معروف، في مجالسهم، وبين خاصّتهم، وقد أነعت المواظب في مساجد: بغداد، والبصرة، والكوفة، والقاهرة، لمّا تكاثرت الوعّاظ، واتسعت الثقافة، وظهرت البوادر الكثيرة التي تدعو إلى تذكير

الناس بآداب الدين، وأحكام الشريعة، والبعث، والمعاد، والوقوف بين يدي الله - سبحانه وتعالى -، وأسهم في هذه المهمة الوعظية الكثيرون من العلماء، والفقهاء، والمحدثين، وكان الخلفاء يستمعون إليهم بإصغاء واهتمام وترقب، ويتشوقون للقاءهم، ويتطلعون إلى ذلك.

وقال الأوزاعي: دخلت على المنصور، فقال لي: ما الذي بطأ بك عني؟ فقلت: وما تريد مني؟ قال: الاقتباس منك... اهـ^(١).

وتقع هذه المواظب في نفوسهم موقعا مؤثرا يستجلب مدامعهم، فقد وعظ عبد الله بن الأَهم عمر بن عبد العزيز وهو جالس على سرير موعظة بليغة، فنزل عمر عن سريرته حتى استوى بالأرض، وجثا على ركبتيه، وابن الأَهم يقول: وأنت يا عمر، وأنت يا عمر، وأنت يا عمر، وعمر يبكي ويقول: يا ابن الأَهم هيه، فلم يزل يعظه، وعمر يبكي حتى غشى عليه... اهـ^(٢).

وكان بعض الخلفاء يستقدم الوعاظ إلى مجالسهم؛ لما يتميز به هذا الواعظ أو ذاك من قوة التأثير، وحسن الأداء، وبلاغة العبارة، وحسن الاستنباط، وكانوا ينتهزون كل مناسبة تجمعهم بالوعاظ، فيطلبون منهم صراحة الموعظة، وكان بعض الخلفاء يوظفون وعظا في قصورهم بصفة دائمة يتولون الوعظ في المساجد، وعند نزول الكوارث والأحداث، وهذا يدلنا على أن المهم هو القدرة على توصيل المعلومات، مما فتح الباب على مصراعيه.

أما المواظب التي كانت تلقى في مجالس الخلفاء، فكانت مواظب تدعو إلى العدل، وتحذر من الظلم، وتدعو إلى البعد عن الترف، والتأسي بالسلف الصالح، والافتداء بالرسول ﷺ وصحابته.

وكان أولئك الوعاظ يبلغون الغاية في الموعظة، مما يدل على إخلاصهم في دعوتهم، واقتناعهم بما كانوا يدعون إليه، وكان الحكام بالتالي يتقبلون ما يوجه إليهم من عظات. لقد تضمنت تعاليم الإسلام قول الحق، ولقنت المتمسكين بها الاستقامة: قولاً، وسلوكاً؛ فانتشرت الموعظة.

(١) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه ح ١٦٢/٣.

(٢) انظر: سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٦٢.

فمن ذلك الموعظة التالية:

خرج عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يوماً إلى السوق، ومعه الجارود: وهو بشر بن عمر بن حنشل فإذا امرأة عجوز، فسلم عليها عمر فردت، وقالت: هيه يا عمر، عهدتك والله تسمى عميراً في سوق عكاظ، تصارع الصبيان، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر، ثم سميت أمير المؤمنين فاتق الله في الرعية، وأعلم أن من خاف الموت خشي الفوت، فبكى عمر - رضى الله عنه -، فقال الجارود: لقد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيتيه. فأشار عمر أن دعها. فلما فرغ قال: أما تعرف هذه؟ قال: لا، قال: هذه خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها، فغمر أخرى أن يسمع كلامها... أه^(١). وكان الخلفاء آذاناً صاغية لهذه المواظب يستجيرون لأهلها، ويستمعون لهم، ويلبّون مطالبهم، ويمثلون ما يدعون إليه، لا تأخذهم العزة بالإثم، ولا ينالهم التكبر والبطر.

ومن ذلك الموعظة الآتية:

دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك بن مروان وهو جالس على سرير، وحوله الأشراف من كل بطن، وذلك بمكة المكرمة في وقت حججه في خلافته، فلماً بصربه قام إليه، وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه وقال: يا أبا محمد ما حاجتك؟ قال: يا أمير المؤمنين: اتق الله في حرم الله، وحرم رسوله: فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنيك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم، ولا تغلق بابك دونهم، فقال له: أفعل بإذن الله تعالى... أه^(٢).

- والله أعلم -

(١) انظر: الشفاء في مواظب الملوك والخلفاء لابن الجوزي ص ٩٧

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للدعي ح/ ٨٤.

الأسباب المباشرة التي قوت الحركة الوعظية ودفعت مسيرتها إلى الأمام

الموضوع
السابع

أولاً : مكانة العلماء بين الناس :

يحدثنا التاريخ : أن العلماء سواء كانوا من المفسرين ، أو المحدثين ، أو الفقهاء ، أو الوعاظ ، كانوا يحظون بالمكانة الرفيعة في المجتمع ، لما لهم من التأثير المباشر في توجيه الخلفاء وإرشادهم إلى الحق ، والتمسك بالدين ، وبيان أحكامه ، وتفسير آيات القرآن الكريم ، وبيان سنة النبي ﷺ ، وقد أحبه المسلمون ، وتلمذوا عليهم ، وتمتعوا بالإجلال والتقدير عند الخلفاء ، والأمراء ، فقرّبهم الخلفاء من مجالسهم ، وقضوا حوائجهم ، وأصغوا إلى نصائحهم .

ومما يدل على مكانة العلماء في نفوس الخلفاء : صلابتهم في الدفاع عن الحق ، واعتزازهم بمكانتهم الدينية ، والعلمية . . اهـ^(١) .

ثانياً : صلاح الحكام :

مما لا ريب فيه أن المكانة الرفيعة التي حظى بها العلماء عند الخلفاء ، والأمراء ، ما كانت لتنتهي لولا الحكام صالحين ، ومستحضرين لأوامر الدين ، ومراعين مكانة العلماء ، ومحافظين على شرع الله ، وبذلك أتاحوا للوعاظ أن يقولوا كلمة الحق ، وأن يجهروا بتعاليم الدين من غير تردد ، وأن يأمروا بالحكام بالعدل ، والإنصاف في الرعية ، بل قد وجد بين الحكام من كان على درجة رفيعة من الفقه في الدين ، وكثرة العبادة ، فكان ذلك باعثاً على تواضعه ، وتدينه ، وحبّه للعلماء والوعاظ ، ولقد كان هارون الرشيد - رحمه الله تعالى - مثلاً أعلى في ذلك ؛ فقد كان يصلي وهو خليفة كل يوم مائة ركعة إلى أن مات . وكان يحب العلماء ، ويعظم حرمات الدين ، ويبكى على نفسه سيما إذا وعظ ، فقد وعظه مرة الفضيل بن عياض الخراساني ، فبكى حتى شهق في بكائه^(٢) .

ولم يكن هارون الرشيد إلا نموذجاً واحداً من خلفاء المسلمين الذين كان يجلبهم الوقار والصلاح ، ويتوخون طاعة الله بالتقرب إليه بالعبادات ، والطاعات ، وتقريب العلماء ، والعدل بين الناس . . . اهـ^(٣) .

(١) انظر : العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ / ١٦٥ - ١٦٨ . (٢) انظر : سير أعلام النبلاء ج ٩ / ٢٨٨ .

(٣) انظر : العصر المباسي الأول تأليف شوقي ضيف ص ١٠١ .

ثالثاً: ازدهار الحركة العلمية،

شهدت القرون الأربعة الأولى من تاريخ الإسلام نهضة علمية شاملة، كانت عماد الحضارة الإسلامية، فانتسعت حلق العلم ومجالسه، وتعددت نواحيه، وأروقته، وكثر المترددون عليها، وتدافع الناس لحضورها، وازداد علماؤها.

ولم يكن يشترط لحضور تلك الحلق الكثيرة أى شرط سوى الرغبة فى الإفادة مما كان يلقي فيها من دروس، ومواعظ.

وهكذا فإن الاهتمام من قبل الخلفاء بمجالس العلم كان يمثل جانبا مهما من جوانب ازدهار الحركة العلمية أتاح للعلماء، والوعاظ فرصة الدخول على الحكام ومناصحتهم، فكانوا يغشون مجالسهم، ويتخيرون لهم النصائح، ويسوقون لهم من الوعظ أقرب، وأسهل، فقد أخذ الله الميثاق على العلماء ليسيئ الحق للناس ولا يكتُمونه... اهـ.

- والله أعلم -

الموضوع
الثامن

أغراض الوعظ في مجالس الخلفاء

إذا ما استعرضنا هذه المواعظ الكثيرة التي ألقيها الوعاظ في مجالس الخلفاء، وضممتها كتب التراث المتعددة استطعنا أن نقف منها على عدد من الأغراض التي توخاها أولئك الوعاظ في مواظبتهم، أذكر منها الأغراض الآتية:

أولاً: التزهيد في الدنيا،

لعل ما يقترن بالسلطان من أبهة الملك، وقوة النفوذ، وثراء المعيشة، وتصريف الأمور، مدعاة لكثير من الناس للإقبال على الدنيا، والانغماس في ملذاتها وشهواتها، والتمتع بما يتوفر من مظاهر الرغد.

ولعل السلطان من أكثر من تنهيا له هذه الأسباب، وتتوفر لديه الدواعي، ولهذا كان حديث الوعاظ واضحا وجليا للخلفاء، يريدون تزيدهم في الدنيا.

وقد بدأت فكرة تزييد الخلفاء في الدنيا مبكرة في العصر الإسلامي، ومن الأمثلة على ذلك ما يأتي:

١- يقول علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- لعمر بن الخطاب -رضي الله عنه-
عندما تولى الخلافة:

إن أردت أن تلحق صاحبك فاقصر الأمل، وكل دون الشبع، وارقع القميص،
واخصف الثعل . . . اهـ (١).

٢- ودخل سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن كعب القرظي على عمر بن عبد العزيز، فقال عمر لأحدهما عظمي، فقال: يا أمير المؤمنين إن الدنيا عطن مهجور، وأكل منزوع، وعرض بلاء، ومستقر آفات، يحيط بها الذل، ويفنيها الثكل، لكل فرحة منها ترحة، ولكل سرور منها غرور، قد رغب عنها السعداء، وانتزعت من أيدي الأشقياء، فكن منها يا أمير المؤمنين كالمدأوى جرحه: يصبر على شدة الدواء، لما يرجو من الشفاء . . . اهـ (٢).

(١) انظر: كنز العمال ج٨/ ٢١٩.

(٢) انظر: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٥٦.

فهذه موعظة قيلت للخليفة الزاهد عمر بن العزيز - رحمه الله تعالى - ، فما كان من عمر إلا أن بكى على إثر هذه الموعظة ، وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله .

٣- ودخل محمد بن كعب القرظي على عمر بن عبد العزيز ، فقال له : يا أمير المؤمنين إنما الدنيا سوق من الأسواق ، فممنها خرج الناس بما ضرهم ، وممنها خرجوا بما نفعهم ، وكم من قوم غرهم منها مثل الذي أصبحنا فيه ، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم ، فخرجوا من الدنيا ملومين ، لم يأخذوا منها لما أحبوا من الآخرة عذة ، ولالما كرهوا جنة . . . اهـ (١) .

٤- ومن هذه المواظب التي كانت تحث الخلفاء على الزهد في الدنيا ما وعظ به رجل من العباد أبا جعفر المنصور حين قال له : لا تغلبك رافتك بالمسلمين عن شح نفسك ، فإن كنت تجمع المال لولدك فقد أراك الله عيباً في الطفل : يسقط من بطن أمه ما له على الأرض مال ، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه ، ولست بالذي يعطى ، بل الله يعطى من يشاء ما يشاء . فإن قلت : إنما تجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه . . . اهـ (٢) .

٥- وقد قال أبو جعفر المنصور لعمر بن عبيد : عظمي يا أبا عثمان ، فقال : يا أمير المؤمنين إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منها ببعضها ، هذا الذي أصبح في يديك لو بقي في يد من كان قبلك لم يصل إليك . . . اهـ (٣) .

٦- وقال هارون الرشيد لابن السمّاك : عظمي ، وقد أتني بماء ليشربه ، فقال له : يا أمير المؤمنين لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك ؟ قال : نعم ، قال : فلو حبست عنك خروجها أكنت تفديها بملكك ؟ قال : نعم . قال : لا خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة . . . اهـ (٤) .

ممّا تقدم يتبين أنّ هذا النمط من الوعظ قد امتدّ عبر العصور الإسلامية على السنة الوعّاظ يزهّدون به الخلفاء عن الإقبال على لذائذ الدنيا ، ومتاعها الزائل ، فيجدون لديهم الاستجابة لقبول الموعظة . . . اهـ .

(١) انظر : سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٥٧ .

(٢) انظر : العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ / ١٦١ . (٣) انظر : الشفاء لابن الجوزي ص ١٠٢ .

(٤) انظر : العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ / ١٦٤ .

ثانياً: ذكر الموت والتخويف من الآخرة:

هذا الموضوع مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالموضوع السابق وهو التزهيد في الدنيا؛ فإن من لوازم التزهيد في الدنيا، والإقبال على الآخرة ذكر الموت، والاستعداد له؛ حتى يكون ذلك رادعاً للنفس الأمارة بالسوء، الطامحة للشهوات، الراغبة في مباحج الدنيا، كما قال الرسول ﷺ: «كفى بالموت واعظاً».

قال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - لأبي حازم: عظمي، فقال أبو حازم: اضبطجع ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة، فخذ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن... اهـ^(١).

ووعظه [مولاه مزاحم] فقال: يا عمر بن عبد العزيز إني أحذرك ليلة في صبيحتها تقوم الساعة، يا عمر لقد كدت أنسى اسمك مما أسمع قال الأمير، قال الأمير... اهـ^(٢).

إنها دعوة لمحاسبة النفس، كما في موعظة أبي حازم لعمر بن عبد العزيز، لذلك الموقف العظيم حين تقوم الساعة، وما يلقي فيها المرء من حساب على أعماله.

وقال سليمان بن عبد الملك: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم أخربتم آخرتكم، وعمرتم دنياكم، فأنتم تكرهون أن تُنقلوا من العمران إلى الخراب. قال: صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله. وأما المسيء فكالأبق يقدم على مولاه... اهـ^(٣).

وأقول: تلك سنة الأحياء عامة، لم يزل عليها الناس في غابر الزمن وحاضره، والمرء إذا لم يُعد لليوم الآخر كره الوصول إليه؛ ومن هنا تناولت هذه المواظب التخويف من الحساب في الآخرة لفرط ما يقع من الإنسان من الأخطاء.

وقد وعظ رجل من الصالحين أبا جعفر المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل؟ قال أبو جعفر المنصور: لا قال: فكيف تصنع بالملك الذي خولك ملك الدنيا، وهو لا يعاقب من عضاه بالقتل، ولكن بالخلود في العذاب الأليم؟، فبكى أبو جعفر المنصور وقال: ليتني لم أخلق... اهـ^(٤).

(١) انظر: سيرة و مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٥٩.

(٢) انظر: سيرة و مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٦٦.

(٣) انظر: الذهب المبروك ص ١٦٥-١٦٦.

(٤) انظر الذهب المبروك ص ١٩٣-١٩٨، والعقد الفريد لابن عبد ربه ح ١٦١/٣.

ووعظ الأوزاعيُّ أبا جعفر المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ كلَّ ما في يدك لا يعدل شربةً من شراب الجنة، ولا ثمرةً من ثمارها، ولو أنَّ ثوباً من ثياب أهل النار علّق بين السماء والأرض لأهلك الناس رائحته، فكيف بمن يتقمّصه؟، ولو أنَّ ذنوباً من صديد أهل النار صبّ على ماء الدنيا لأحمت، فكيف بمن تجرعه؟ ولو أنَّ حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لأذابته، فكيف بمن يسلك فيها؟... اهـ^(١).

وعلى هذا النحو كانت تصوّر مواقف يوم القيامة، وعذاب أهل النار بما تقشعر له الأبدان، وتنصدع له القلوب، وتذهل له العقول، مما كان يجعل لتلك المواعظ وقعها الذي لا ينكر في نفوس من يسمعها.

ووعظ شبيب بن شيبه التميمي (ت ١٧٠ هـ) المهدي فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ الله إذا قسم الأقسام في الدنيا جعل لك أسفلها وأعلاها، فلا ترض لنفسك في الآخرة إلا مثل ما رضى لك به من الدنيا، فأوصيك بتقوى الله... اهـ^(٢).

ووعظ الفضيل بن عياض هارون الرشيد، فقال له: يا حسن الوجه لقد قلّدت أمراً عظيماً فاتق الله في نفسك، وإن قدرت أن لا تلفح النار هذا الوجه الحسن فافعل... اهـ^(٣).

ثالثاً: الدعوة لاختيار البطانة الصالحة،

مما لا شك فيه أن الصورة الخارجية للسلطان تظهر فيمن يتخذ من أعوان، وما يكون لديه من بطانة؛ فإن كانت هذه البطانة صالحة مهتدة الطريق بينه وبين المجتمع، وأصلحت الوسائط الممتدة بين الراعي والرعية، فوصل المظلوم إلى حقّه، والمستجير إلى من يجيره، وإن كانت على خلاف ذلك ضربت بينه وبين رعيته سوراً منيعاً لا يمكن اجتيازه من أحد الجانبين، فانعزل السلطان عن حياة المجتمع، ولم يعرف ما يدور بين رعيته فلاتصل إليه شكوى، وانعزل الناس كذلك عنه، يأكل القوى الضعيف، ويقهر الكبير الصغير، ويستولي الجشع على حقوق الناس، ومن ثمَّ تزداد البطانة سوءاً بما تعتسفه من إكحام الجور والطغيان، وبما تتعدّى به على أموال الناس وأنفسهم وحرّماهم، فتعيث في الأرض فساداً، وتمتلك الضياع والمتاع، وتستكثر من الأموال غير ناظرة إلى حلال أو حرام، وهى في طمأنينة ممّا فعلت، وأمن من مغبة جرمها بما أقامته بين الحكام والمحكومين، من سدود منيعة، وحواجز قوية.

(١) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربّه ح ٣/ ١٦٢-١٦٣.

(٢) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربّه ح ٣/ ١٦٥.

(٣) انظر: حلية الأولياء ح ٨/ ١٠٥.

لهذا كنا نجد كثيراً من الوعاظ يحثون الخلفاء على اختيار أفراد حاشيتهم؛ ليكونوا صالحين في أنفسهم، وفي معاملتهم للرعية، أو نجدهم يجارون بشكواهم عن هذه الحاشية لسوء سيرتهم، وفرط ظلمهم للرعية:

دخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك، فقال: إنه قد تكتفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم، فابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله، ولم يخافوا الله فيك، فإنهم لا يألون الأمانة تضييعاً، والأمة عسفاً، وأنت مسئول عما اجترحوا، وليسوا مسئولين عما اجترحت، ولا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس جرماً من باع آخرته بدنياه غيره... اهـ^(١).

وتحدث رجل من العباد عند المنصور: فذكر الحاشية التي تحول بينه وبين أصحاب المظالم، ونقع حاجزاً بينه وبين الرعية، وكشف عن أثرهم في تشويه سمعة الأبرياء، وتسويد صحائف الناس البيضاء، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيته، وأمرتهم أن لا يُحجَّبوا دونك، قالوا: هذا قد خان الله، فما لنا لانخونه؟

فأتمروا أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا خونوه عندك، ونفوه حتى تسقط منزلته، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم، وصانعوهم، وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيته، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيته ولينالوا ظلم من دونهم، فامتلات بلاد الله بالدمع ظلماً وبغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك، وأنت غافل، فإن جاء متظلم حيل بينك وبينه... اهـ^(٢).

لقد جسم هذا الواعظ المفاصد التي تترتب على سوء اختيار الحاشية بصورة فيها قدر كبير من التأمل، والنظر والإحساس بالواقع، ثم صنف تلك المفاصد في ظلم الرعية، وفي استرضاء ذوي المقدرة والثروة لها، ممّا حملهم على ظلم من دونهم، وفي عدم قدرة الناس على الوصول إلى الخليفة لبث شكواهم حتى امتلات بلاد الله بالطمع ظلماً وبغياً.

وعلى هذا النحو نجد محمداً بن كعب القرظي يعظ عمر بن عبد العزيز فيقول: لا تتخذن وزيراً إلا عالماً، ولا أميناً إلا بالجميل معروف، وبالمعروف موصوفاً، فإنهم شركاؤك في أمانتك، وأعوانك على أمورك، فإن صلحوا أصلحوا، وإن فسدوا أفسدوا... اهـ^(٣).

(١) انظر: العقد الفريد ٣/١٦٦، والذهب المسبوك ص ١٧٤، والشفا ص ١٠٠.

(٢) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه ص ١٦٠/٣.

(٣) انظر: الأمانى لأبي على القالي ٢/٢٩، والذهب المسبوك ص ١٧٩.

ومنّا يجسم هذا النوع من المواظ هو أنّ الوعاظ قد حذّروا الخلفاء من سوء الحاشية، ومن ذلك ما ذكره الحسن البصري في إحدى مواظبه لعمر بن عبد العزيز إذ قال له: لا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلّا ولا ذمّة، فستبوء بأوزارك، وأوزار مع أوزارك، وتحمّل أثقالك، وأثقالاً مع أثقالك، ولا يفرّتك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم، يذهب طيباتك في آخرتك... اهـ^(١).

فهذه موعظة من رجل متضلّع في الوعظ، ممارس لحياة الناس، مطلع على وقائع الأمور، مستنبط لفقه القرآن الكريم، والسنة النبوية، فنجدّه يعظ عمر بن عبد العزيز ذلك الخليفة الحريص على العدل، والاستقامة، وتوخيّ إنصاف الرعية، ووصول الحقوق إلى أصحابها، ومع ذلك حذّره من اتخاذ بطانة السوء.

وقال سالم بن عبد الله بن عمر في موعظة له وجهها إلى عمر بن عبد العزيز، فقال له: ما أعظم الذي ابتليت به، وأفظع الذي سيق إليك!، فمن بعثت من عمالك إلى العراق فأنه نهيا شديداً شبيها بالعقوبة عن أخذ الأموال، وسفك الدماء؛ فإنه لانجاة لك من هول جهنم من عامل بلغك ظلمه، ثم لم تغيّره... اهـ^(٢).

وقد شرح عمرو بن عبّيد في موعظته لأبي جعفر المنصور هذا الدور المستتر الذي تقوم به الحاشية باسم الخليفة، وهو منه براء، فيظلمون بحكم مركزهم، وبقوة سلطانهم، فيقول: يا أمير المؤمنين إن هؤلاء اتخذوك سلماً لشهواتهم، فأنت كالآخذ بالقرنين وغيرك يحلب، فاتق الله يا أمير المؤمنين فإنك ميت وحدك، ومبعوث وحدك، ومحاسب وحدك، ولن يغني عنك هؤلاء من الله شيئاً... اهـ^(٣).

ويكرّر عمرو بن عبّيد هذه الموعظة لأبي جعفر المنصور، فيقول له: يا أمير المؤمنين إن هؤلاء اتخذوك سلماً إلى شهواتهم، فقال المنصور: فماذا أصنع؟ ادع لي أصحابك أولّهم.

فقال: ادعهم أنت بعمل صالح تُحدّثه، واستعمل في اليوم الواحد عمّالاً كلّما رابك منهم شيء، أو أنكرت على رجل عزلته، ووليت غيره، فوالله لئن لم تقبل منهم إلا العدل ليتقرّبن به إليك من لانية له فيه... اهـ^(٤).

(١) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه ج١/٣٥.

(٢) انظر: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٥٠-١٥١.

(٣) انظر: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان تأليف عبد الله بن أسعد اليافعي ج١/٣٥٥.

(٤) انظر: المحاسن والمساوي تأليف إبراهيم بن محمد البيهقي ص ٣٣٩.

وقد أعلن صالح بن عبد الجليل في موعظته للمهدى: عن تبرمه من الاحتجاب عن الرعية، واتخاذ الحجاب دونها حين قال له: يا أمير المؤمنين إنه لما سهل علينا ما توغر على غيرنا من الوصول إليك قمنا مقام المؤدى عنهم، وعن رسول الله ﷺ بإظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي... اهـ^(١).

من هذا نجد دعوة الوعظ الملحة للخلفاء في فتح أبوابهم للعامة، والتقليل من الحجاب الذين يفصلون بينهم وبين الناس.

رابعاً: تبعة الخلافة وحسن معاملة الرعية:

تحدث الوعظ كثيراً عن حقوق الرعية على الراعي، وأساليب معاملة الناس، ووجوب الإحسان إليهم، فإن السلطان ما ولى هذه المهمة إلا من أجل خيرهم، وتحقيق مصالحهم. كما قال الأوزاعي لأبي جعفر المنصور: إنك تحملت أمانة هذه الأمة، وقد عرّضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها.

وقد جاء عن جدك عبد الله بن عباس -رضى الله عنهما- في تفسير قول الله - عز وجل -: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فُتْرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

فقال: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: الضحك فما ظنك بالقول والعمل؟ فأعيزك بالله يا أمير المؤمنين أن ترى أن قرابتك من رسول الله ﷺ تنفعك مع المخالفة لأمره... اهـ^(٢).

ثم نقل إليه في سياق موعظته قول النبي ﷺ: «ما من راع يبيت غاشاً لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة»^(٣).

ثم قال الأوزاعي في موعظته هذه: وحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظراً، وبالحق فيهم قائماً... اهـ^(٤).

وكانت جسامه المسئولية التي يتحملها الخليفة مناط تعزية، وتصبوا في حديث الوعظ ليحملوا الخلفاء على الوفاء بحقوقها كاملة.

(١) انظر: عيون الأخبار ج٢/ ٣٣٣، والمقد الفريد ج٣/ ١٥٨، والذهب المسبوك ص ٢٠٩.

(٢) انظر: المقد الفريد ج٣/ ١٦٢. (٣) انظر: صحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم/ ١٤٢.

(٤) انظر: المقد الفريد ج٣/ ١٦٢.

فمن ذلك موعظة زياد العبد حين قدم على عمر بن عبد العزيز قوله : لا تُعْمِل نفسك في الوصف ، وأعمل نفسك في المنخرج مما وقعت فيه ، فلو أن كل شعرة منك نطقت ما بلغت كُنه ما أنت فيه . . . اهـ^(١) .

وقد وعظ أبو نصر الجهنى هارون الرشيد ، فقال له : أيها الرجل إنه ليس بين الله ، وبين أمة نبيه «محمد» ﷺ ، ورعيتك خلق غيرك ، وإن الله سائلك فأعد للمسألة جوابا .

فقد قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : لو ضاعت سَخْلَةٌ على شاطئ الفرات لخاف عمر أن يسأله الله عنها ، فبكى هارون ، وقال : يا أبا نصر إن رعيتي ، ودَهْرِي ، غير رعية عمر ودهره ، فقال له أبو نصر : هذا والله غير مغن عنك ، فانظر لنفسك ، فإنك ، وعمر ستسألان عما خولكما الله . . . اهـ^(٢) .

ووعظه عبد الله بن عبد العزيز العمري وهو واقف على الصفا ، فقال : انظر كم حَوْل الكعبة من الناس؟ فقال : كثير ، فقال : كل واحد منهم يسأل يوم القيامة عن خاصة نفسه ، وأنت تُسأل عنهم كلهم ، فبكى هارون الرشيد بكاء كثيرا . . . اهـ^(٣) .

ودخل سالم ، ومحمد بن كعب على عمر بن عبد العزيز فوعظه أحدهما موعظة رسم فيها طرق التعامل مع الرعية ، والأدوار التي يمكن أن يقوم بها الخليفة في صلته بأفرادها ، فقال له : يا أمير المؤمنين إن الله لم يجعل أحدا من خلقه فوقك ، فلا ترض لنفسك أن يكون أحد من خلقه أطوع له منك ، واجعل الناس أصنافا ثلاثة : الكبير بمنزلة الأب ، والوسط بمنزلة الأخ ، والصغير بمنزلة الولد : فبر أباك ، وصل أخاك ، واعطف على ولدك . . . اهـ^(٤) .

وقد كرّر هذا المنعنى رجاء بن حيوة الكندي في موعظة لعمر بن عبد العزيز إذ قال له : اجعل كبير الناس أبا ، وصغيرهم ولدا ، وكهْلهم أخا ، يصلحوا لك ، وتصلح لهم . . . اهـ^(٥) .

ففي التصنيّن السابقين بين الواظب للخليفة سياسة التعامل مع الرعية ، وجعلهم في ثلاثة منازل : منزلة الأب ، ومنزلة الأخ ، ومنزلة الولد ، وهو أسلوب من التعامل

(١) انظر : سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٦٤ .

(٢) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ج ١ / ٢٣٥ . (٣) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ج ١ / ١٩٢ .

(٤) انظر : سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٥٦ .

(٥) انظر : الذهب المبيوك ص ١٧٥ .

يضمن حسن العلاقة مع كل أفراد الرعية، ولا شك أن هذه الروح عندما تسود في مجتمع بين قيمته، وقاعدته، فإنها تضمن التواصل المستمر، والاحترام المتبادل بين الرعية، وقيادتها، وقد تناول الحسن البصري هذا المعنى في موعظة من مواظبه لعمر ابن عبدالعزيز إذ قال له: الإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق الذي يرتاد لها أطيب المراعى، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنها من أذى الحر، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرّة الرقيقة بولدها، حملته كرها، ووضعت كرها، وربته طفلاً، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة، وتقطمه تارة أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى، وخازن المساكين، يربى صغيرهم، ويموّن كبيرهم. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده. والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسْمِعهم، وينظر إلى الله ويريههم، وينقاد إلى الله ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله - عزّ وجلّ - كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدّد المال، وشرّد العيال، فافقر أهله، وفرّق ماله... اهـ^(١).

وهكذا نجد الحسن البصري - رحمه الله تعالى - يلقّب الأوصاف للخليفة في علاقته بالرعية فيجعله كالراعى، وكالأب، وكالأم، وكالقلب بين الجوارح، ليؤكد خاصية الشفقة، والعطف، والحنوّ، التى تربطه بهم، وإنّ فى صلاحه صلاحاً للأمة. ثم يحدّد فى أواخر كلامه الدور الذى يقوم به الخليفة فى حماية الشرع، وتحقيق مصالح الدنيا.

وقد لخصّ سالم بن عبد الله بن عمر هذا الأمر فى إحدى مواظبه لعمر بن عبد العزيز إذ قال له: يا أمير المؤمنين ارض للناس ما ترضى لنفسك، واكره لهم ما تكره لها، تسلم منهم، ويسلموا منك... اهـ^(٢).

(١) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١/ ٣٤-٣٥.

(٢) انظر: الذهب المصبوك ص ١٧٥.

كما جَسَمَ أبو مسلم الخولاني في موعظته لمعاوية وظيفه الخليفة، ليحسَّ كأنه دون الناس، لأنه مكلف برعاية شئونهم ومصالحهم، فيتدره بقوله: السلام عليك أيها الأمير، اعلم أنه ليس من أجبر استرعى رعية إلا وهو مسئول عنها: فإن هو داوى مرضاها، ووضعها في أنف الكلا، وصفو من الماء وقاه أجره... اهـ^(١).

وقال جعفر الصادق لأبي جعفر المنصور: اعلم أنك إن عاقبت مستحقاً لم تكن غاية ما توصف به إلا العدل، والحال التي توجب الشكر أفضل من الحال التي توجب الصبر. قال أبو جعفر المنصور: وعظت فأحسنت... اهـ^(٢).

وقد يجابيهونهم بالسفد اللاذع، والاحتجاج المبرم لما يتخذون من وسائل الاحتجاج عن الرعية، والصدود عن المستضعفين.

ومن ذلك ما قاله عبد الله بن عبد العزيز العمري يعظ هارون الرشيد إذ قال له: يا هارون إن الرجل يسرف في ماله فيستحق الحجر عليه، فكيف بمن يسرف في أموال المسلمين كلهم؟... اهـ^(٣).

وحاسبوهم حساب من يقول: من أين لك هذا؟، حتى قال سفيان الثوري وهو يعظ المهدي عندما قابله في الحج: كم أنفقت في سفرك هذا؟ قال: لا أدري لى أمانة، ووكلاء، فقال سفيان: فما عذرك غذا إذا وقفت بين يدي الله تعالى فسألك عن هذا؟ لكن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لما حج قال لغلامه: كم أنفقت في سفرنا هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين ثمانية عشر ديناراً. فقال: ويحك أجهننا بيت مال المسلمين... اهـ^(٤).

وقد وعظ عمر بن عبيد سليمان بن علي أمير البصرة بقوله: إن مما من الله به على الأمير: أن يعلم أنه ليس له أن يأخذ درهما إلا بحقه، ولا يضيِّعه إلا في حقه.

فقال سليمان: نحن أحسن بالله ظناً منك.

فقال عمرو: ما كان أحد أحسن ظناً بالله - تعالى - من نبينا محمد ﷺ، وقد لقي الله، وما يطالبه أحد بمظلمة... اهـ^(٥).

(١) انظر: الحلية لأبي نعيم حـ ٢/ ١٢٥، والشفاء لابن الجوزي ص ٩٨.

(٢) انظر: وصايا ومواعظ العلماء ص ٩٧. (٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير حـ ١٠/ ١٩٢.

(٤) انظر: حلية الأولياء حـ ٦/ ٣٧٧. (٥) انظر: الذهب المسبوك ص ٢٣٣.

خامساً: الدعوة إلى العدل

يتصل بالحديث عن معاملة الرعية بالعدل في حياة الحاكم، ومعاملته لرعيته في مختلف المناسبات: فلا يجور على عدو، ولا يحابي صديقاً من الأصدقاء، والدعوة إلى العدل تقتضى بالتالى التنفير من الظلم.

والعدل أصل من أصول الإسلام، وقاعدة من قواعده العامة، نجدها في القرآن الكريم، وفي سنة النبي ﷺ:

فمن القرآن:

- ١- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].
- ٢- وقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].
- ٣- وقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩].

ومن السنة المطهرة الحديث الآتى:

- ١- «إِنَّ الْمَقْسُطِينَ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ بِمَا أَقْسَطُوا فِي الدُّنْيَا» اهـ^(١).

ولقد أدرك علماء الأمة، ووعاظها أهمية العدل في استقرار الحياة، واضطراد النمو، والتقدم للمجتمع، فعملوا ووعوا قول الرسول ﷺ:

«أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ، وَلَمْ تَمْنَعِهِمْ هَيْبَةُ السُّلْطَانِ أَنْ يَقُولُوا لِلظَّالِمِ: أَنْتَ ظَالِمٌ» اهـ^(٢).

وإذا اعتسف الحكام، وضاق الناس بظلمهم، وتذمروا من حيفهم، ضجوا إلى الوعاظ يشرحون لهم ظلامتهم، ويستجيرون لديهم، ويبعثونهم إلى الحكام ليذكروهم بقيمة العدل وأهميته، ويدعونهم إلى رفع الظلم.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه الحديث رقم / ١٨٢٧.

(٢) هذا جزء من حديث أبي سعيد الخدري، انظر: سنن أبي داود رقم / ٤٣٤٤.

ومن ذلك أن أحمد بن طولون (ت ٧٠٢ هـ) لما ظلم استغاث الناس من ظلمه، وتوجهوا إلى امرأة من الصالحات هي: نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب (توفيت بالقاهرة سنة ٢٠٨ هـ)، وشكوا ذلك إليها، فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا: في غد، فكتبت رقعة ووقفت في طريقه، وقالت: يا أحمد بن طولون.

فلما رآها عرفها، فنزل عن فرسه وأخذ منها الورقة، وقرأها فإذا فيها: ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، وردت إليكم الأرزاق فقطعتم، وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة، لاسيما من قلوب أوجعتموها، وأكباد أوجعتموها، وأجساد أعريتموها، اعملوا ما شئتم إنا صابرون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، فعدّل لوقته... اهـ^(١).

وهكذا نجد الوعاظ يواجهون الخلفاء، والأمراء بالحق، وأن يعلنوا مظالم الناس إليهم. وكانوا كثيراً ما يضمّنون مواظبهم بهذا الشأن منهجاً عاماً في معاملة الرعية وإنصافها، كما فعل سعيد بن عامر الجمحي (ت ٢٠٢ هـ - رضى الله عنه) في موعظته لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه - ت ٢٣ هـ) إذ قال له: أوصيك أن تخشى الله في الناس، ولا تخشى الناس في الله، ولا يختلف قولك وفعلك، فإن خير القول ما صدقه الفعل، ولا تقض في أمر واحد بقضائين: فيختلف عليك أمرك، وتزيغ عن الحق، وخذ بالأمر ذي الحجة بعنك الله، ويصلح رعبتك على يديك، وأقم وجهك وقضاءك لمن ولأك الله أمره من بعيد المسلمين، وقريبهم، وأحب لهم ما تحب لنفسك وأهل بيتك، واکره لهم ما تكره لنفسك، وأهل بيتك، ولا تخف في الله لومة لائم... اهـ^(٢).

هكذا كانت مجالس الخلفاء تعجّ بالوان المواظب التي تتناول سلوك الخلفاء، وحاشيتهم، وتطالب بحسن معاملة الرعية، وكانوا يستقبلون كل ذلك برحابة صدر، وسعة أفق، ووازع ديني يدفعهم إلى الاستجابة لهذه المواظب.

-والله أعلم-

(١) انظر: وصايا ومواظب العلماء للأمراء لخاليد سيد على ص ٢٤٠.

(٢) انظر: المجلس الصالح والأنيس الناصح، تأليف أبي الفضل يوسف بن الجوزي ص ٢١٩.

الموضوع
التاسع

أنواع التعازي

لقد استعرضتُ ما ضمت كتب التراث من التعازي، وقد اقتبست منها التعزيات الآتية:

أولاً: تعزية النفس،

إذا دنا الإنسان من الموت، وأحسَّ بالنهاية، واستدبر الدنيا، استقبل الآخرة، تغيرت أحاسيسه، وذلت نفسه، وخشع جناحه، ورقَّ حديثه، واعتراه الأسف والندم، وامتلاً بالخوف والرهبة.

لذلك أقف على كثير من النصوص التي يصف فيها المحتضرون حالهم: فقد روى البخاري في صحيحه عن أنس -رضي الله عنه- قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت «فاطمة» -رضي الله عنها: واكرب أباه، فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»، فلما توفاه الله -تعالى- قالت: يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه إلى جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل نعاه، فلما دُفن -عليه الصلاة والسلام- قالت «فاطمة» -رضي الله عنها: يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟^(١)

وجاءت «عائشة» -رضي الله عنها- إلى أبيها أبي بكر -رضي الله عنه- وهو يعالج سكرات الموت، ونفسه في صدره، فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغنى الشراء عن الفتى . إذا حشرت يوماً وضاق بها الصدر^(٢)
فنظر إليها والدها كالغضبان، ثم قال لها: ليس كذلك يا أم المؤمنين، ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

يا عائشة: إنني كنت نحلثك حائطا، وإن في نفسي منه شيئا فردّيه إلى الميراث، قالت: نعم، فردّته. فقال لها: أما إنني منذ أن وليت أمر المسلمين لم أكل لهم دينارا ولا درهما، وليس عندي من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضع، وجرد هذه القطيفة: فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر وابرئي منهن، ففعلت.

(١) انظر: صحيح البخاري الحديث رقم/ ٨٩٤.

(٢) البيت من شعر حاتم الطائي في قصيدة له، وحاتم الطائي شاعر جاهلي.

فلما جاء الرسولُ عمرُ بكى، حتى جعلت دموعه تسيل في الأرض، ويقول: رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده. . اهـ^(١).
فهذه خواطر رجل مقبل على ربه، تحمل مسئولية الأمة، ونهض بأعبائها، يطرح بساطه بين يديه، ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب؛ إحساساً منه بهذا الموعد الذي يؤول إما إلى نعيم دائم، أو عذاب مقيم.

ويستعرض صفحة تولى الإمامة ينشر سطورها، وينكت محتوياتها؛ فيجد نفسه قد عاش بالقليل، وهو واحد من الأمة لا يعلو عليهم ولا يتكبر، أكل ما سدّ الجوعة، ولبس ما ستر العورة، واحتمل الجوع حتى تلوت أحشاؤه، وتحركت أمعاؤه، ثم يوصي ابنته «عائشة» أم المؤمنين أن تردّ إلى بيت مال المسلمين ذلك التزر اليسير الذي استعان به في حياته، حتى يلقي ربه خالي الوفاض؛ حتى لا يسأله الله عن أي شيء، وربما تحوّل هذه اللحظات الحرجة من حياة الإنسان إلى استشعار تام بالذنب، فتؤول إلى استغفار كامل، وتسيح مطلق، وتوبة صادقة.

ومن الأدلة على ذلك ما يأتي:

لمّا احتضر عمرو بن العاص -رضي الله عنه- جمع بنيه وقال: أسندوني، فأسندوه، فقال: اللهم إني أكرمتني فلم أكرم، وزجرتني فلم أزدجر، اللهم لا أبرئ فأعتذر، ولا مستكبر بل مستغفر، استغفرك وأتوب إليك، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. . اهـ^(٢).

وعلى هذا النحو جاءت موعظة الحسن البصري -رحمه الله تعالى- وهو في الموت، وكان يكثر الاسترجاع، فقال له ابنه: أمثلك يسترجع على الدنيا؟ فقال: يا بني ما استرجع إلا على نفسي التي لم أصب بمثلها قط. . اهـ^(٣).
ولمّا احتضر عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١ هـ) قال له أبوه: كيف تجدك يا بني؟ قال: أجدني في الموت فاحتسبني، فإن ثواب الله خير لك مني.
فقال: والله يا بني لأن تكون في ميزاني أحبّ إليّ من أن أكون في ميزانك.
فقال: وأنا والله لأن يكون ما تحبّ أحبّ إليّ من أن يكون ما أحبّ. . اهـ^(٤).

(٢) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣/ ٢٣٣.

(١) انظر: طبقات ابن سعد ج ٣/ ١٩٦.

(٤) انظر: نهاية الأرب ج ٥/ ١٦٦.

(٣) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣/ ٢٣٤.

وقيل لبعض الصالحين وهو يجود بنفسه : كيف تجدك ، وكيف حالك ؟ فقال : كيف حال من يريد سفرا بعيدا بلا زاد ، ويدخل قبرا موحشا بلا مؤنس ، وينطلق إلى رب بلا حُجة ؟ .. اهـ ^(١) .

وعلى هذا النحو نجد عمر ابن عبيد عندما احتضر قال : جاءني الموت ولم أتأهب له ، اللهم إنك تعلم أنه لم يُسَنَحْ لى أمران : لك فى أحدهما رضى ، ولى فى الآخر هوى ، إلا اخترت رضاك على هوائى ، اللهم اغفر لى .. اهـ ^(٢) .

وقال هشام بن عبد الملك عندما نزل به الموت ، ووقف أولاده ليكون حوله : جاد لكم هشام بالدنيا ، وجدتم له بالبكاء ، وترك لكم ما جمع ، وتركتم عليه ما اكتسب ، ما أعظم منقلبى إن لم يغفر الله لى .. اهـ ^(٣) .

حقاً إنها ساعة يطيب فيها الرجاء ، وتتوق فيها النفس إلى مغفرة الله سبحانه .

ثانياً: تعزية الآباء:

لَمَّا كَانَ الولد امتداداً لأبيه ، وصورة منه يحمل ذكره ، فقد كان الولد صنو النفس ، ومضغة من القلب ، وفلذة من الكبد ، حتى لنجد استعمال الكبد مقسماً بالحديث عن الابن فى رثائه ، وتعزيتة ، وعلى هذا الأساس نستطيع أن ندرك نوعين من التعزية عند فقدان الولد :

النوع الأول: حديث الأب عن نفسه عند فقد ولده ، وما يتداعى إليه من الخواطر ، والأفكار ، وهو يوارى كبده تحت التراب ، أو يراه يجود بنفسه مليدا دعوة خالقة - عز وجل - ، وقد ضرب لنا الرسول ﷺ صورة مثالية فى استقبال هذا الحدث الجلل ، بما أودع من عواطف إنسانية جياشة ، ويقين صادق ، وإيمان عميق :

فعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - :

أن النبى ﷺ دخل على ولده إبراهيم - عليه السلام - وهو يجود بنفسه ، فجعلت عيناه تذرفان .

فقال له عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - : وأنت يا رسول الله .

فقال : « يا ابن عوف إنها الرحمة » ، ثم قال : « إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون » .. اهـ ^(٤) .

(١) انظر : بهجة المجالس ، وأنس المجالس ، تأليف أبى عمر يوسف بن عبد البر ح ٣/ ٣٦٨ .

(٢) انظر : بهجة المجالس ، وأنس المجالس ح ٣/ ٣٧٢ . (٣) انظر : بهجة المجالس ، وأنس المجالس ح ٣/ ٣٧١ .

(٤) هذا الحديث رواه البخارى عن أنس فى كتاب الجنائز رقم ١٢١٦ .

فالرسول ﷺ يرينا في هذه اللحظة الحرجة، وولده في النزاع الأخير، ويجود بنفسه، ويتلوّى بين يديه، أروع مثال للأب الصابر المؤمن، الذي يحيل مصائبه إلى قوة الإيمان، فتتحول إلى عبادة صادقة، ويرينا من جانب آخر العاطفة الأبوية الصادقة، التي لاتفارق الأبوة، ويأبى أن تفوت هذه المناسبة حتى يوجّه المسلمين إلى حقيقة الإيمان فيقول لهم عندما انكسفت الشمس يوم أن مات ولده إبراهيم: «أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وأنهما لا ينكسفان لموت أحد من الناس، فإذا رأيتموهما فقوموا فصلّوا» . . اهـ (١).

ومن هذه المواضع التي تحدّث فيها الآباء عن موت أبنائهم، وفلذات أكبادهم: ما نجده من تجلّد عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - عند وفاة ولده عبد الملك إذ قال: الحمد لله الذي جعل الموت حتما واجبا على خلقه، ثم سوى فيه بينهم فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فليعلم ذوو النّهي أنهم صائرون إلى قبورهم، مفردون بأعمالهم. . اهـ (٢).
ووقف أبوذر الهمداني (ت ١٥٣ هـ) على قبر ابنه ذرّ فقال: يا ذرّ، والله ما بنا إليك من فاقة، وما بنا إلى أحد سوى الله من حاجة.

يا ذرّ شغلني الحزن لك عن الحزن عليك، ثم قال: اللهم إنك وعدتني بالصبر على ذرّ رحمتك.

اللهم إنّي قد وهبتُ ما جعلت لي من أجر على ذرّ فلا تعرفه قبيحا من عمله، فإنك أجود، وأكرم.

فلما انصرف عنه التفت إلى قبره، وقال: يا ذرّ قد انصرفنا وتركناك، ولو أقمنا ما نفعناك. . اهـ.

النوع الثاني: ما يوجّه للأب عند وفاة ولده من قريب، أو صديق بما يحثه على الصبر والسلوان، ويدعوه إلى الاحتساب وطلب الأجر، ويبين له سنة الله في ذلك.

وهذا النمط من التعزية نراه مبثوثا هنا وهناك في كتب التراث والتعازي.

فقد عزّى عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه - ت ٤٠ هـ) الأشعث بن قيس (رحمه الله تعالى - ت ٤٠ هـ) في وفاة ابنه، فقال له: إن تحزن فقد استحققت ذلك منك

(١) هذا الحديث رواه البخاري عن ابن مسعود - رضي الله عنه - في كتاب الكسوف: حديث رقم/ ٩٧٥.

(٢) انظر: التعازي والمراثي، لأبي العباس المبرد تحقيق محمد الديباجي ص ٤٦-٤٧.

الرحم، وإن تصبر فإن في الله خلفاً من كل هالك، مع أنك إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت آثم. . اهـ^(١).

واستشهد ابن لأبي أمانة الحمصي، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي أمانة: الحمد لله على آلائه وقضائه وحسن بلائه، فقد بلغني الذي ساقه الله إلى عبد الله بن أبي أمانة من الشهادة، فقد عاش بحمد الله مأموناً، وأفضى إلى الآخرة شهيداً، وقد وصل إليكم من الله خير كثير إن شاء الله. . اهـ^(٢).

وكتب إبراهيم بن يحيى الأسلمي إلى المهدي يعزّيه في ابنته: أما بعد: فاعلم أن الماضي قبلك هو الباقي بعدك، وإن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم عليهم من النعمة فيما يعافون منه. . اهـ^(٣).

وكتب ابن المقفع تعزية في ولد، فقال: أعظم الله على المصيبة أجرك، وأحسن على جليل الرزء ثوابك، وعجل لك الخلف فيه، وذخر لك الثواب عليه. . اهـ^(٤).

وعزّي ابن المقفع في بنت، فقال: جدّد الله لك من هيئته ما يكون خلفاً لك بما رزّته، وعوضاً عن المصيبة بها، ورزقك من الثواب عليها أضعاف ما رزّاك به منها، فما أقل كثير الدنيا في قليل الآخرة، مع فناء الدنيا، ودوام الآخرة. . اهـ^(٥).

وعزّي صالح المرقّي رجلاً في ابنه، فقال له: إن كانت مصيبتك لم تُحدث لك موعظة فمصيبتك في نفسك أعظم من مصيبتك في ابنك، واعلم أن التهتة على أجل الثواب، أولى من التعزية على عاجل المصيبة. . اهـ^(٦).

إلى غير ذلك من التعازي التي كان الناس يطيبون بها مشاعر الآباء، ويداوون جراحهم. . اهـ.

ثالثاً: تعزية الأبناء:

لَمَّا كَانَ الموت لا يفرّق بين صغير وكبير، وعظيم وحقير، فكثيراً ما يعاني الأبناء من صدمة موت الآباء، حين يوارونهم الثرى، ويدسونهم في التراب، فقد كانوا ملء أعينهم وقلوبهم، وبهجة نفوسهم وخواطرهم:

(١) انظر: العقد الفريد ٣/٣٠٤، ونهاية الأرب ١٦٥/٦٠.

(٢) انظر: التعازي والمرثى ص ٤٧. (٣) انظر: البيان والتبيين ٢/٧٤.

(٤، ٥) انظر: جوهرة رسائل العرب ٣/٥٦.

(٦) انظر: العقد الفريد ٣/٣٠٤.

لَمَّا توفى على بن أبي طالب -رضي الله عنه: قام ابنه الحسن بن علي -رضي الله عنه- فقال: أيها الناس إنه قبض فيكم الليلة رجل لم يسبقه الأولون، ولم يدركه الآخرون، قد كان رسول الله ﷺ يبعثه فيكتفه جبريل -عليه السلام- عن يمينه، وميكائيل -عليه السلام- عن شماله، لا يثنى حتى يفتح الله له.

ما ترك صفراء، ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم أعدها لخدام له. . اهـ^(١).

وسمع الحسن البصري -رحمه الله تعالى- جارية واقفة على قبر أبيها، وهي تقول: يا أبت مثل يومك لم أره، فقال: الذي لم ير مثل يومه أبوك. . اهـ^(٢).

ووقفت أعرابية على قبر أبيها، فقالت: يا أبت إن في الله -تبارك وتعالى- من فقدك عوضا، وفي رسول الله ﷺ من مصيبتك أسوة، ثم قالت: اللهم نزل بك عبد مقفرا من الزاد، غنيا عما في أيدي العباد، فقيرا إلى ما في يدك يا جواد، وأنت خير من نزل به المؤمنون، واستغنى بفضل المقلون، وولج في سعة رحمته المذنبون، اللهم فليكن قرى عبدك منك رحمتك، ومهاده جنتك، ثم انصرفت. . اهـ^(٣).

رابعة: تعزية الإخوة:

لقد أحسن المعزّون بالأصل المشترك الذي يجمع بين الأخوين، والذي يكون غالبا غير قابل للتعويض كما هو الشأن في فقد الأبناء والبنات.

كما أن الأخ يستمد قوة علاقته بأخيه مع احترام الوالدين، وصلة الأبناء بهما، على نحو ما نجد في رثاء متمم بن نويرة (ت ٣٠هـ) لأخيه مالك بن نويرة (ت ١٢هـ) عندما حاوره عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه- وقال له: لم أرك رثيثا زيدا بن الخطاب (ت ١٢هـ)، كما رثيث أخاك مالكا، فقال: إنه يحركني لمالك ما لا يحركني لزيد. . اهـ^(٤).

ونجد نماذج من هذه التعازي في آثار الجاهلية، فقد قال أكثم بن صيفي (ت ٩هـ) لعمرو بن هند اللخمي عند وفاة أخيه: أيها الملك إن أهل هذه الدار سفر لا يحلّون عَقْدَ الرّحال إلا في غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك، وأقام معك من سيطعن ويدعك، فما أحسن الشكر للمنعم، والتسليم للقادر، وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء القرع بعد أصله؟ وأعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وخير من الخير معطيه، وشر من الشر فاعله. . اهـ^(٥).

(١) انظر: العقد الفريد ج ٣/ ١٣٨.

(٢) انظر: العقد الفريد ج ٣/ ٢٤٣.

(٣) انظر: العقد الفريد ج ٣/ ٢٤٢.

(٤) انظر: التعازي والمراثي ص ٢١.

(٥) انظر: العقد الفريد ج ٣/ ٢٦٠.

فهذا أكثر من صيفى : - وهو من حكماء العرب ، ومن فصحاء الجاهلية - تنبض في كلماته الحكمة ، ويسفر قوله عن التسليم بالقدر ؛ لأنه يتفق مع المسلمين في الحديث عن حقيقة الموت ، وألم الفراق .

ووقف محمد ابن الحنفية : - وهو من أولاد على بن أبى طالب (رضى الله عنهما - ولد سنة ٢١ هـ ، وتوفى سنة ٨١ هـ) على قبر أخيه الحسن بن على - رضى الله عنهما - فحنقته العبرة ، ثم قال : يرحمك الله أبا محمد ، فلئن عزت حياتك ، فلقد هذت وفاتك ، ولنعم الروح روح ضمة بدنك ، ولنعم البدن بدن ضمة كفك ، وكيف لا يكون كذلك وأنت بقية ولد الأنبياء ، وسليل الهدى ، خامس أصحاب الكساء ^(١) . غدتك أكف الحق ، وربيت فى حجر الإسلام ، فطبت حيا ، وطبت ميتا ، وإن كانت أنفسنا غير طيبة بفراقك ، ولا شاة فى الخيار لك . . اهـ ^(٢) .

فهذا المعنى فى الصلة الوثيقة بين الأخوين ، وعدم التعويض عن الأخ بعد فقدته ما نستشعره من قول معاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنهما ، فقد وقف على قبر أخيه عتبة - رضى الله عنه - فدعا له ، وترحم عليه ، ثم التفت إلى من معه ، فقال : لو أن الدنيا بنيت على لسان الأجابة ما نسيت عتبة أبدا . . اهـ ^(٣) . يفهم من هذا أن معاوية - رضى الله عنه - أعلن حزنه ، وألمه على فقد أخيه ، وأنه لن ينساه مادام حيا .

ولما مات أخو مالك بن دينار بكى مالك ، وقال : يا أخى لا تقر عيني بعدك حتى أعلم أفى الجنة أنت أم فى النار ، ولا أعلم ذلك حتى الحق بك . . اهـ ^(٤) . وعزى صالح المري رجلا فى أخيه ، فقال : إن تكن مصيبتك فى أخيك أحدثت لك خشية ، فنعم المصيبة مصيبتك ، وإن تكن مصيبتك فى أخيك أحدثت لك جزعا ، فبست مصيبتك . . اهـ ^(٥) .

وقال المبرد : مات أخ لبعض ملوك اليمن : فعزاه بعض العرب ، فقال : اعلم أن الخلق للخالق ، والشكر للمنع ، والتسليم للقادر ، ولا بد مما هو كائن ، ولا سبيل إلى رجوع ما قد فات . . اهـ .

(١) أصحاب الكساء هم : رسول الله ﷺ ، وفاطمة ، وعلى ، والحسن ، والحسين - رضى الله عنهم - : جللهم النبي ﷺ معه بكساء ، ودعا لهم فقال : اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي ، فأذهب عنهم الرجس ، وطهرهم تطهيرا ، وفيهم نزل قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

(٢) انظر : العقد الفريد ج ٣ / ٢٤٠ .

(٣) انظر : العقد الفريد ج ٣ / ٢٤٤ .

(٤) انظر : التعازى والمراثى ص ٥٢ .

(٥) انظر : البيان والنبين ج ٤ / ٧٤ .

خامساً: تعزية الأزواج:

العلاقة الزوجية صلة تُستحدثُ بعقد الزواج، وتتجددُ بالإنكاح، ولكنها لكثرة الاختلاط، وطول العشرة، وانكشاف الأعماق بين الزوجين تتوطد فيها العلاقة، وتقوى الرابطة، يستكمل فيها الرجل عناصر وجوده، وأهمية حياته، كما تحقق المرأة فيها كوامن عواطفها، واستقرار حياتها، قال الله - تعالى - :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرُّوم: ٢١].

وعند الموت تتفجر هذه المودة صيحات دامية، وعبارات باكية، وتشغل تلك الرحمة أحاسيس.

وقد حفظ لنا التاريخ أمثلة كثيرة من رثاء الأزواج، والزوجات تدل على ما يصيب أحدهما عند فراق صاحبه من الحزن، والألم، قال محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦هـ) :

وقفت نائلة الكلبيّة على قبر زوجها: عثمان بن عفّان -رضى الله عنه- فترحمت عليه، ثم قالت :

ومالى لا أبكى وتبكى صحابتي . . . وقد ذهبت عنا فضول أبى عمرو
ثم انصرفت إلى منزلها، فقالت: إني رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب، وقد خفت أن يبلى حزني على عثمان في قلبي، فكسرت أسنانها، وقالت: والله لا يقعد مني رجل مقعد عثمان أبداً . . اهـ^(١).

فهذا حزن ملأ على روجة عثمان -رضى الله عنه- شغاف قلبها، فعمدت إلى فيها فكسرت أسنانها، لتصدّر رغبة الطامحين إلى الزواج منها؛ حتى لا تنسى زوجها الأول، وهذا الإحساس القوي في العلاقة بين الزوجين لم يترك رجلاً حصيفاً مثل علي بن أبي طالب -رضى الله عنه-؛ فإنه لما دفن روجه فاطمة بنت رسول الله ﷺ تمثل عند قبرها فقال :

لكل اجتماع من خيلين فرقة . . . وكل الذي دون الممات قليل
وإن افتقادي واحداً بعد واحد . . . دليل على ألا يدوم خليل^(٢)

(١) انظر: العقد الفريد ج٣/ ٢٤٢.

(٢) انظر: العقد الفريد ج٣/ ٢٤١، والبيان والتبيين ج٣/ ١٨١، والتعازي والمراثي ص ٢٠٥.

سادساً: تعزية الخلفاء:

لقد كان للخليفة في المجتمع الإسلامي مكانة الركن من البيت؛ لأنه شعار الأمة، وعنوان وحدتها، ورمز قوتها، وازدهارها، لذلك فإن وفاته تمثل انهداماً في كيانها.

وأكثر ما تأتي التعزية في الخليفة الدعاء له بالأجر، والثواب على ما أعطى الأمة من جهد وعمل، على نحو ما يقول مسلمة بن عبد الملك بن مروان عندما دخل على عمر بن عبد العزيز، وهو يحتضر؛ فوقف عند رأسه، وقال: جزاك الله يا أمير المؤمنين عناً خيراً؛ فلقد ألنت لنا قلوباً كانت علينا قاسية، وجعلت لنا في الصالحين ذكراً. اهـ^(١).

ولما توفي أبو جعفر المنصور قدمت وفود المعزين على ابنه المهدي، وفيهم أبو العيناء محمد بن القاسم بن خلاد البصري، وكان عالماً محدثاً، فتقدم إلى التعزية، فقال: أجز الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله، وبارك الله لأمر المؤمنين فيما خلفه له، فلامصية أعظم من مصيبة إمام، ولا عقبى أفضل من خلافة الله على أوليائه، فاقبل من الله أفضل العطية، واصبر على الرزية. اهـ^(٢).

ومن ذلك أن ابن عتبة دخل على المهدي يعزيه في وفاة والده المنصور، فقال: أجز الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله، وبارك الله لأمر المؤمنين فيما خلفه له أمير المؤمنين بعده، فلامصية أعظم من فقد أمير المؤمنين، ولا عقبى أفضل من وراثته مقام أمير المؤمنين، فاقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية، واحتسب عنده أعظم الرزية. اهـ^(٣).

وتكاد تكون هذه الطريقة في الجمع بين التهنية بالخلافة، والتعزية في الخليفة السابق عادة متبعة، فيما كان يقال من التعازي بين أيدي الخلفاء الجدد، على إثر وفاة من قبلهم. ومن ذلك تعازي غسان بن عبد الحميد في الخلفاء العباسيين التي قال في إحداها: أما بعد: فإن الله جعل خلافته حفظاً لدينه، ورحمة لعباده، ثم جعل لهم أولياء خلفاء يتوارثونها، ويتداولون الكرامة من الله بها، فتتقضى مدة ماضيهم لخيرة الله إياه، وتأتي خلافة باقيهم لاصطناع الله له، فنحمد الله الذي جعل فيكم أهل تلك

(١) انظر: العقد الفريد ج ٣/ ٢٣٠.

(٢) انظر: العقد الفريد ج ٣/ ٣٠٨.

(٣) انظر: البيان والتبيين ج ٢/ ١٩٢.

الخلافة الذين جعلكم لها وارثاً، فكان منهم الماضى الذى كانت له، والباقى الذى صارت إليه، والحمد لله على ما كانت عليه حياة أمير المؤمنين، ووفاته من كرامة الله إياه، وعلى وضعه الخلافة عند أمير المؤمنين الباقي، ونسأل الله أن يعظم فى الماضى الأجر، ويمنحك من الباقي أفضل الحظ، ويعينك فى المصيبة على أفضل الصبر، وفى النعمة على أفضل الشكر. . اهـ^(١).

وهكذا نجد شبيب بن شيبة فى تعزيته لأبى جعفر المنصور، فى أخيه أبى العباس، حين بين له الأجر فى احتساب موت أبى العباس والصبر على فقده، والشكر لله على ما أعقب المنصور من الخلافة فقال له: جعل الله ثواب ما رزقت به لك أجراً، وأعقبك عليه صبراً، وختم لك ذلك بعافية تامة، ونعمة عامة، فثواب الله خير لك منه، وما عند الله خير له منك. . اهـ^(٢).

وكتب إبراهيم بن إسحاق البغدادي (ت ٢٨٥هـ) إلى بعض الخلفاء يعزيه فقال: إن أحق من عرف حق الله فيها أخذ منه من عرف نعمته فيما أبقي عليه، يا أمير المؤمنين إن الماضى قبلك هو الباقي لك، والباقي بعدك هو المأجور فيك، وإن النعمة على الصابرين فيما ابتلوا به أعظم منها عليهم فيما يعافون منه. . اهـ^(٣).

وربما أبدى بعض الخلفاء تجلداً، واحتمالاً فى تقبل المصيبة، وجعل فى ذلك عظة لمسلك إيماني أراد أن يثبه فى الرعية، على نحو ما صنع الوليد بن عبد الملك حينما عزاه محمد بن الوليد بن عتبة، فقال: يا أمير المؤمنين لا يشغلك ما أقبل من الموت إليك، عمّن هو فى شغل مما دخل عليك، وأعددت لنزوله عُدّة تكون لك حجاباً من الجزع، وستراً من النار.

فقال: يا محمد أرجو أن لا تكون رأيت غفلة ستنبه عليها، ولا جزعاً يُستتر منه.

فقال محمد: يا أمير المؤمنين إنه لو استغنى أحد عن موعظة بفضل لكتته، ولكن الله يقول: ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . . اهـ^(٤) [الذاريات: ٥٥].

وهذا يدل على حرصهم فى التعزية على التذكير، والتنبيه، والاعتبار، وأخذ العظة، ولو كان المعزى ممن أظهر التصبر والجلد، أو كان على حظ من العلم، والفقّه فى الدين، أو على منزلة من المكانة والجاه، وربما لمحووا هذا الجانب،

(٢، ٣) انظر: العقد الفريد ج ٣/ ٣٠٨.

(١) انظر: جمهرة رسائل العرب ج ٣/ ١٠٨.

(٤) انظر: عيون الأخبار ج ٣/ ٥٨.

وما يكون عليه العلية من وعى ديني وثقافي وخلقى، كما نجد في تعزية أحد الناس إلى بعض الأمراء إذ قال له: الأمير أذكر الله من أن يذكر به، وأعلم بما قضاه على خلقه من أن يدل عليه، وأسلك لسبيل الراشدين في التسليم لأمره، والصبر على قدره، من أن ينه من ذلك على حظه، أو أن يحتاج معزيه عند حادث المصيبة إلى أكثر من الدعاء في قضاء حقه. . اهـ^(١).

ولمحووا في تعازيهم أحيانا رجاحة عقل الخليفة، وعظم مرتبته التي لاتضعضعها المصائب، على نحو ما نجد من موقف عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - حين توفيت أخته، فدنا إليه رجل، فعزاه فلم يرد عليه، فلما رأى الناس ذلك أمسكوا عنه، ومشوا معه، فلما بلغ الباب أقبل على الناس بوجهه، وقال: أدركت الناس وهم لا يعزّون بامرأة إلا أن تكون أما، انقلبوا رحمكم الله. . اهـ^(٢).

ونجد هذا الموقف يتكرر في تعزية سعيد بن حميد لمحمد بن عبد الله الخزاعي إذ قال له: قد بلغني ما حدث من قضاء الله في أم الأمير، فنالني من ألم الرزية، وفاجع المصيبة، ما ينال خدمه الذين يحضهم ما خصه من النعم، ويتصرفون معه فيما تناوله الله به من المحن، فأعظم الله للأمير الأجر، وأجزل له المثوبة والذخر، ولا أراه في نعمة عنده نقصا. . اهـ^(٣).

-والله أعلم-

(١) انظر: عيون الأخبار ج ٢ / ٦٢.

(٢) انظر: العقد الفريد ج ٢ / ٣١٠.

(٣) انظر: عيون الأخبار ج ٢ / ٦٣.

الموضوع
العاشر

موضوعات التعازي

وقد ذكرت منها الموضوعات الآتية:

أولاً : الموت سنة ماضية :

إن الذي يتأمل هذه الحياة الدنيا بعين العقل والبصيرة، ليدرك أن مصير كل حي فيها إلى الموت؛ لأنه سنة ماضية قدره الله - سبحانه وتعالى - على كل المخلوقين.

وقد بين الله في كتابه الكريم هذه الحقيقة في أكثر من آية، فمن ذلك قول الله - تعالى - : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّرُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقوله - تعالى - : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [٢٦] وَيَقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿ ٢٧ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]

وقوله - تعالى - : ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة: ٨].

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة الدالة على هذا المعنى فهل رأينا مخلوقاً استطاع أن ينجو بنفسه من الموت؟ أو يمتلك القدرة على تأخير الموت عن نفسه لحظة من اللحظات مهما أوتى من أسباب القوة والسلطان؟ لأن الأعمار إنما هي آجال محددة:

قال الله - تعالى - : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

ومن هنا أكثر المعزّون من الحديث عن الموت على أساس أنه قضاء مبهم لامخرج للأحياء منه حتى ولو احتموا منه بالحصون الممنعة، أو البروج المشيدة، كما قال الله - تعالى - :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨].

لما احتضر عمرو بن العاص -رضي الله عنه- جمع بنيّه، وقال لهم: يا بني لن تغتوا عني من أمر الله شيئاً، فقالوا: يا أبانا إنه الموت، ولو كان غيره لوقيناك بأنفسنا. اهـ^(١).

نعم . إنه الموت ، فمن الذي يستطيع أن يقف في وجه الموت ، أو يردّه عن أحبابه ، أو أقربائه ، حتى لو كانت نفسه فداء ، وتضحية .

قال ابن قتيبة : قرأت في كتاب تعزية : لا لوم على دمة لا تُملَكُ ، ولا على ألم في القلب لا يُدفع أن يظهر فيك ، واعلم أن فرق ما بين ذى العقل ، وذى الجهل في مصيبتهما تعجل العاقل من الصبر ما يتأجل الجاهل . . اهـ^(١) .

ولا تفتأ الحياة تلاحق الأحياء بالمصائب ، والنوائب ؛ اختباراً من الله لعباده ، وامتحاناً لإيمانهم ، حتى يصدق الإيمان ، وتثبت صحة العقيدة ، فلا يقدر أحد أن ينجو منها ، أو أن يدفعها بماله ، أو جسده ، ولو استطاع الناس دفع المصائب لدفعوها بأنفس ما يملكون ، حتى يسلموا منها .

قال ابن قتيبة : قرأت في كتاب تعزية : لو كانت النوائب مدفوعة عن أحد بكثرة من يقيه ذلك من إخوانه ، ويفديه منه بالأخص من أعزته ، والأنفس من ماله لسلمت . . اهـ^(٢) .

كتب ابن المقفع : أما بعد : إن أمر الآخرة ، والدنيا بيد الله هو يدبرهما ، ويقضى فيهما ما يشاء ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، فإن الله خلق الخلق بقدرته ، ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة ، لئلا يطمع أحد من خلقه في الخلود في الدنيا ، ووقت لكل شيء ميقات أجل لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، فليس أحد من خلقه إلا وهو مستيقن بالموت لا يرجو أن يخلصه من ذلك أحد ، نسأل الله خير المنقلب . . اهـ^(٣) .

وإزاء هذه السنة الماضية ، والحكمة الصادقة التي لا ترد دعا المغزّون إلى الرضا بأمر الله ، والتسليم بحكمته .

قال غسان بن عبد الحميد في تعزية له : أما بعد : فإن الله لم يرض لنفسه أن يُعصى قضاءه فيما وافق العباد ، أو خالفهم ، ولم يرض من العباد إلا أن يسلموا لأمره فيما أحبوا ، أو كرهوا ممّا أنزل الله بهم ، فقضاء الله غير مردود ، وأمره غير مدفوع ، والساخت لذلك غير معتب ، وللراضي به أفضل العوض . . اهـ^(٤) .

وقال غسان بن عبد الحميد معزياً : لم ينزل بك من المصيبة بأخيك إلا ما رأيته نزل بالناس في أحبائهم قبلك ، فلا أحسبك رأيت منهم صابراً إلا غبطته ، ولا جازعاً إلا عجزته ، فخذ لنفسك بالذي تغبط به غيرك ، واحذر عليها الذي تعجز فيه سواك . . اهـ^(٥) .

(١) انظر : عيون الأخبار ج ٣ / ٥٦ .

(٢) انظر : عيون الأخبار ج ٣ / ٥٥-٥٦ .

(٣) انظر : جمهرة رسائل العرب ج ٣ / ١٠٨ .

(٤) انظر : جمهرة رسائل العرب ج ٣ / ٥٧ .

(٥) انظر : جمهرة رسائل العرب ج ٣ / ١٠٩ .

وقال غسان بن عبد الحميد في تعزية أخرى: هذا الموت ممّا ساوى الله فيه بين الخلائق ففضى أن تذوقه كل نفس، ويُمْنى به كل حي. فالمستقدم فيه على أسوة ممن قبله، وممن بعده، وأنه سيلحقه الباقي كما سبقه الماضي، ومكّاره الدنيا حالة على من عمّر الدنيا، فإن الله خلقها للبلاء حين خلقها، وخلق أهلها على الابتلاء، فجعل لهم منها أطباقاً يركبونها، وحالات يتقلون فيها من محنة إلى مكروه، ونقص وعافية، فكل ذي سلامة وإن طالت، وذى عافية وإن تابعت، لا بد أن تناله المكاره، وتنصرف به الحالات، ويبلى بالخير والشرّ فتنة، وجميع العباد أسوة لأخيك في الموت الذى أتى عليه، فاذكر ذلك عند مصيبتك. اهـ^(١).

ثانياً: إعلان الجزع:

يختلف موقف الناس، وإحساسهم من المصائب، والكوارث، والأحداث التى تمرّ بهم كما هو مشاهد ومألوف، فنحن فى الوقت الذى نجد فيه من يستقبل الحادثة بالتفهم لها، والتعقل فيها، واللجوء إلى الحلم، والتسليم بالقضاء والقدر، نجد فريقاً آخر يستقبلها بالتوتر العصبى، والانفعال الشديد، والجزع، والاضطراب، والهيجان، وذلك راجع لما فطر الله الناس عليه من اختلاف فى الاستعدادات، والتكوينات النفسية.

قال أبو العباس المبرّد: المصائب ما صغر منها، وما عظم تقع على ضربين: فالحزم والتسلّى عما لا يغنى الغم فيه، والاحتياط لدفع ما يُدفع بالحيلة. اهـ^(٢).
لهذا نجد هذين الصنفين من الناس فى خططين متوازيين، وواضحين فيما بين يديّ من التعازى، ومن أحسن القول فى هذا المعنى فى الإسلام قول على بن الحسين بن على بن أبى طالب -رضى الله عنهم- حين مات ابنه فلم ير منه جزع، فسئل عن ذلك فقال: أمر كُنّا نتوقّعه، فلما وقع لم ننكره، وفى هذا فضل تسليم لقضاء الله -عزّ وجلّ-. اهـ^(٣).
وهذا عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- يطلب من أبى قلابة^(٤) وقد ولى غسل ابنه عبد الملك أنّه إذا غسله، وكفّنه أن يبلغه قبل أن يغطّى وجهه، ففعل، فلما نظر عمر إلى ولده قال بلسان المؤمن بقضاء الله وقدره: رحمك الله يا بُنى وغفر لك. اهـ^(٥).

(١) انظر: جمهرة رسائل العرب ج ٣ / ١١١.

(٢) انظر: الكامل للمبرّد ج ٣ / ١٣٩٩.

(٣) هو عبد الله بن زيد الجرمي من أهل البصرة، كان من رجال الحديث، عالماً بالقضاء (ت ١٠٤ هـ).

(٥) انظر: التعازى والمراثى ص ٥٩.

فى هذه العبارة ما يدل على طمأنينة النفس، وهدوء البال، والانصياع إلى أمر الله، دون إعلان للجزع، أو إظهار للحزن والألم، وهكذا فعلت «فاطمة» -رضى الله عنها- لما فرغ الناس من دفن رسول الله ﷺ فأقبلت على أنس بن مالك -رضى الله عنه- وقالت: يا أنس كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على وجه رسول الله ﷺ التراب؟ ثم بكّت ونادت: يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه ربه أدناه، يا أبتاه إلى جبريل نعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه.. اهـ^(١).

فبكاؤها -رضى الله عنها- تعبير عن حالة نفسية استقبلت بها فقد أحب الآباء، وأفضل الرجال، وهو رسول الله ﷺ، ولكنها أنابت واكتفت بصلة رسول الله ﷺ بربه، فذاك خير العزاء.

وقال عبدالرحمن بن عمر: دخلت على امرأة من نجد فى خباء لها، وبين يديها ابن لها قد نزل به الموت، فقامت إليه فأغمضته، وعصيته، وسجته، وقالت: يا ابن أخى، قلت: ما تشائين، قالت: ما أحق من البس النعمة، وأطيلت به النظرة أن لا يدع التوثق من نفسه قبل حل عقده، والحلول بعقوته^(٢)، والمحالة بينه وبين نفسه. قال: وما يقطر من عينيها دمة صبرا واحتسابا، ثم نظرت إليه، فقالت: والله ما كان ماله لبطنه، ولا أمره لعرسه.. اهـ^(٣).

وأكثر من ذلك: أن أعرابيا مات له ثلاثة بنين فى يوم واحد، فدفنهم وعاد إلى مجلسه، فجعل يتحدث كأن لم يفقد أحدا، فليم على ذلك، فقال ليسوا فى الموت ببديع، ولا أنا فى المصيبة بأوحد، ولا جدوى للجزع، فعلام تلو موننى؟.. اهـ^(٤). وقال أبو على الرازى: صحبت الفضيل بن عياض (ت ١٨٧ هـ) ثلاثين سنة فماريته ضاحكا، ولا متبسما إلا يوم أن مات ابنه على، فقلت له فى ذلك، فقال: إن الله أحب أمرا فأحببت ما أحب الله.. اهـ^(٥).

فهذا مقياس إيمانى عالى المرتبة لا يقدر عليه إلا من أوتى الحكمة، وأشرقت نفسه، وصفت خواطره، حتى انساق عواطفه لأمر الله، فأحب ما أحب الله، ولذلك يستقبل المصيبة بوفاة ولده بالتبسم؛ لأن فى ذلك موافقة لإرادة الله -تبارك وتعالى-

(١) انظر: العقد الفريد ج ٣ / ٢٣٨.

(٢) العقوة: الساحة وما حول الدار، والمراد بها هنا: القبر.

(٣) انظر: العقد الفريد ج ٣ / ٢٤٢.

(٤) انظر: نهاية الأرب ج ٥ / ١٦٤.

(٥) انظر: نهاية الأرب ج ٥ / ١٦٥.

ونحن نجد فريقاً آخر يملكه الألم، والجزع؛ لفقد أحبائهم، وذويهم، ويبدو عليهم الألم، والضجر.

قال ابن السَّمَاك: المصيبة واحدة، فإن كان فيها جزع فهي اثنتان.. اهـ^(١).
ولمّا مات محمد بن الحجاج جزع عليه والده جزعاً شديداً، فقيل له: اتق الله، واسترجع، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون.. اهـ^(٢).

فهذا رجل قد تملكه الجزع، وسيطر عليه الحزن، وأسف على فراق ولده، وقد بدت فتوته، وشبّ عن الطوق، وبدت فيه صفات الرجولة، لكنه لما ذكّر بالتقوى، ودُعِيَ إلى الاسترجاع استعاد عزّمه، وقوّته، واتزانته، واحتكم إلى قول الله - تعالى -: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦).

[البقرة: ١٥٥-١٥٦]

ولا يدلّ الجزع على الميت على نقص في الإيمان، أو ضعف في العقيدة، أو فتور في الدين، فإننا نجد من المسلمين المشهود لهم ببرجاجة العقل، وسلامة العقيدة، ما يدلّ على أثر الجزع عليهم؛ لأن ذلك شيءٌ نفسى لا يقف في طريقه أى شيء.

قال الفضيل بن عياض: ما جزع أحد من أصحابنا عند الموت، ما جزع مسفيان الثوري، فقلت: يا أبا عبد الله: ما هذا الجزع؟ أليس تذهب إلى من عبدته، وفررت ببدنك إليه؟ فقال: ويحكم إني أسلك طريقاً لم أعرفه، وأقدم على ربّ لم أره.. اهـ^(٣).
ولمّا احتضر إبراهيم النخعي (ت ٩٦ هـ) جزع جزعاً شديداً، فقيل له في ذلك، فقال: وأى خطر أعظم إنما أتوقع رسولا يرد عليّ من ربّي: إمّا بالجنة، وإمّا بالنار.. اهـ^(٤).

ومن مهيجات الجزع ما يراه الإنسان من أسباب الموت، كما فعل حُجْر بن عدى^(٥) حينما قدّم للقتل، فإنه سأل أن يُسهل حتى يصلى ركعتين، ثم ظهر منه جزع شديد، فقال له قائل: أتجزع؟ فقال: وكيف لا أجزع؟ سيف مشهور، وكفن منشور، وقبر محفور، ولست أدري أيؤذن بي إلى الجنة، أم إلى النار؟.. اهـ^(٦).

وهذا يقين المؤمن الذي يكون بين الخوف والرجاء، فإنه مع حسن ظنه بالله - تعالى - يظلّ مفطوراً على الخوف من الموت.. اهـ^(٧).

(١) انظر المرجع السابق. (٢) انظر: العقد الفريد ج ٣/ ٢٣٠.

(٣) انظر: العقد الفريد ج ٣/ ٢٣٣، ٢٣٤. (٤) انظر: التعاريف والمراني ص ١٣٢.

(٥) هو: حُجْر بن عدى الكندي - رضي الله عنه - صحابي جليل ومن الشجعان الأخيار، ثم كان من أصحاب علي - رضي الله عنه -، وحضر معه موقعة الجمل وصفين، ثم أمر معاوية بقتله سنة ٥١ هـ.

انظر: طبقات ابن سعد ج ٦/ ١٥١.

(٦) انظر: نهاية الأرب ج ٥/ ١٦٤.

(٧) انظر: الكامل للمبرّد ج ٣/ ١٤٥٠.

وعلى هذا فإن أساليب التعبير عن ذلك الجزع تختلف ما بين تخوف، وتهيب .
ثم لا يلبث ذلك أن يتلاشى بما أودع الله - تعالى - في نفس الإنسان من تصبر .
وسلوان عن المصيبة . . . اهـ .

ثالثاً: طلب الأجر والمثوبة:

لَمَّا كَانَ الْمَيِّتُ مُقَدِّمًا عَلَى رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا مَا قَدَّمَ فِي حَيَاتِهِ مِنْ خَيْرٍ ، أَوْ شَرٍّ ، وَلَا يَدْرِي أَيُّ الْكَفَتَيْنِ أَرْجَحُ ؟ وَلَا يُعْلَمُ مُصِيرُهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي يَحَاسِبُ فِيهِ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ مِمَّا قَدَّمَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَمَّا كَانَتْ الرَّحْمَةُ مِنَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - هِيَ الْمُلْجَا الَّذِي يَسْتَرْقُ ذُنُوبَ الْعَاصِينَ ، وَيَتَجَاوِزُ فِيهِ اللَّهُ عَنْ خَطَايَاهُمْ ، وَيَفْتَحُ بَابَ الْأَمَلِ بِالنَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ لِمَنْ تَابَ مِنْهُمْ ؛ لِذَلِكَ عَوَّلَ الْمُعْزُونَ عَلَى الدُّعَاءِ لِلْمَيِّتِ بِالرَّحْمَةِ ، وَالْمَغْفِرَةِ ، وَالْأَجْرِ ، وَالْمَثُوبَةِ .

لَمَّا مَاتَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ قَامَتْ امْرَأَةٌ عَلَى قَبْرِهِ ، فَقَالَتْ : اللَّهُ دَرَكٌ مِنْ مُدْرَجٍ فِي كَفَنٍ ، نَسَأَلُ اللَّهَ الَّذِي فَجَعَلَنَا بِمَوْتِكَ ، وَابْتَلَانَا بِفَقْدِكَ أَنْ يَجْعَلَ سَبِيلَ الْخَيْرِ سَبِيلَكَ ، وَدَلِيلَ الْخَيْرِ دَلِيلَكَ ، وَأَنْ يَوْسَعَ اللَّهُ لَكَ فِي قَبْرِكَ ، وَيَغْفِرَ لَكَ يَوْمَ حَشْرِكَ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ فِي الْمَحَافِلِ شَرِيفًا ، وَعَلَى الْأَرَامِلِ عَطُوفًا ، وَلَقَدْ كَانُوا لِقَوْلِكَ مُسْتَمْعِينَ ، وَلِرَأْيِكَ مُتَّبِعِينَ ، فَقَالَ النَّاسُ : مَا سَمِعْنَا كَلَامَ امْرَأَةٍ أَبْلَغَ مِنْ هَذِهِ . . . اهـ (١) .

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ بْنُ أَبِي دُلْفٍ (ت ٢٢٦هـ) : الْمَصَائِبُ حَالَةٌ لَا بَدَّ مِنْهَا ، فَمِنْهَا مَا يَكُونُ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ ، وَلُطْفًا بَعْدَهُ ، وَآيَةٌ ذَلِكَ أَنْ يَوْفِقَهُ اللَّهُ لِلصَّبْرِ ، وَيُلْهِمَهُ الرِّضَا ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ سَخَطًا وَانْتِقَامًا ، وَلَمْ تَزَلْ عَادَةُ اللَّهِ عَلَى الْإِخْتِلَافِ ، وَالِاتِّلَافِ . . . اهـ (٢) .

وَقَالَ ابْنُ قَيِّمٍ : قَرَأْتُ تَعْزِيَةً لِبَعْضِ الْكُتَّابِ قَالَ فِيهَا : أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَسُدَّ بِكَ مَا ثَلُمْتَ الْأَيَّامَ مِنْ مَكَانَةٍ ، وَيَعْمَرَ مَا أَضَلَّتْ مِنْ مَشَاهِدِهِ وَأَوْطَانِهِ ، وَأَنْ يَسْتَقْبَلَ لَكُمْ أَيَّامَكُمْ بِأَحْسَنِ مَا أَمْضَاهَا لِمَنْ مَضَى مِنْكُمْ ، وَأَنْ يَتَوَلَّاكُمْ وَيَتَوَلَّانَا فِيكُمْ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ . . . اهـ (٣) .

رابعاً: الدعوة إلى الصبر:

الصبر باب واسع من أبواب الإيمان ، وعلامة مميزة للمؤمن حين يحتسب ما يُلَمُّ بِهِ مِنَ الْمَصَائِبِ عِنْدَ رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مَدْعَاةً لِلتَّصَبُّرِ ، وَالتَّجَلُّدِ ، وَلَا تَخْلُو الدُّنْيَا مِنْ مَنَغْصَاطَاتٍ تَلَمُّ بِالْمَرْءِ مَهْمَا ارْتَفَعَ شَأْنُهُ ، وَزَادَتْ قُوَّتُهُ ، وَامْتَدَّ ثَرَاؤُهُ ، فَلَنْ تَمْضِيَ الْحَيَاةُ كُلُّهَا عَلَى مَتَوَالٍ وَاحِدٍ مِنَ السَّعَادَةِ ، وَالرِّخَاءِ ، وَمَنْ الَّذِي لَمْ يُفْجَعْ بِفَقْدِ حَبِيبٍ ، أَوْ لَمْ يَعْانِ مِنْ مَرَضٍ مُبْرَحٍ ؟ .

لكن المؤمن من منطلق إيمانه بقضاء الله وقدره، وحكمته وعفوه، وطلب الأجر والثوبة من خالقه تعالى يستقبل هذه المواقف الرهيبة بثبات، ورباطة جأش.

كان الحسن البصري - رحمه الله تعالى - يقول: الحمد لله الذي كلفنا مالو كلفنا غيره لصبرنا فيه إلى معصيته، وأجرنا على ما لا بد لنا منه... اهـ^(١).

وكان علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يقول عند التعزية: عليكم بالصبر، فإن به يأخذ الحارم، وإليه يعود الجازع... اهـ^(٢).

وقال للأشعث بن قيس: إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت موزور... اهـ^(٣).

ووقفت «عائشة» أم المؤمنين - رضي الله عنها - على قبر أبيها أبي بكر - رضي الله عنه - فقالت: نصر الله وجهك، وشكر لك صالح سعيك، فقد كنت للدنيا مذلاً بإدبارك عنها، وكنت للآخرة معزاً بإقبالك عليها، ولئن كان أجل الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك، وأعظم المصائب بعده فقدك، فإن كتاب الله ليعد بحسن الصبر فيك، وحسن العوض منك، فأنا أستعويض الله منك بالاستغفار لك، فعليك السلام ورحمة الله، توديع غير قالية لك، ولا زارية على القضاء فيك... اهـ^(٤).

فهذه عواطف سيّدة ترى أباهما قد فارق الحياة، فاشتعل قلبها بالحزن على فراقه، لكن وقار الإيمان، وجلال اليقين يهدّئان عواطفها، ويحدّدان ألفاظها، فإذا بها تأتي بعبارات مجلّلة بالإيمان، محتسبة عند الله الأجر والثواب.

وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - لسمّا توقى أبو بكر - رضي الله عنه: رحمك الله أبا بكر، كنت أول القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدّهم يقيناً، وأعظمهم عناء، وأحفظهم على رسول الله ﷺ، وأحربهم على الإسلام، وأحنّاهم على أهله، وأشبهم برسول الله ﷺ خلقاً، وفضلاً وهدياً وسمّاً، فجزاك الله عن الإسلام، وعن رسول الله، وعن المسلمين خيراً، صدقت رسول الله حين كذبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا... اهـ^(٥).

فالعالم أجمع يجد علياً بن أبي طالب - رضي الله عنه - يتماسك في وقت اشتدت فيه المحنة، وعظمت الرزية بوفاة أبي بكر - رضي الله عنه - فيصبر، ويحتسب.

(٤) انظر: البيان والتبيين ج ٢/ ٣٠٢.

(٣: ١) انظر: العقد الفريد ج ٣/ ٣٠٤.

(٥) انظر: العقد الفريد ج ٣/ ٢٤٠، ٢٤١.

وتختلف صفة الصبر ومقداره على حسب مقدار المصيبة، ومنزلة المصاب: فهذا على بن أبي طالب -رضي الله عنه- مع ما آتاه الله تعالى من الصبر، ورزاقته العقل، يقف على قبر النبي ﷺ ساعة دفنه، ويقول: إن الصبر لجميل إلا عنك يا رسول الله، وإن الجزع لقيح إلا عليك، وإن المصاب بك لجلل... اهـ^(١).

من هذا تختلف درجة الصبر، باختلاف منزلة الأبناء عند آبائهم فإن منهم من ينال الحظوة عند أبيه، فيكون الحزن عليه شديداً، وربما كانت الدعوة إلى الصبر منطلقة من المقارنة بين فوائد الدنيا ومصائبها، وبين الأجر والجزع، مما يحيل المصيبة إلى محاكمة عقلية تقلل من أثرها، وتهوّن من وقعها، فيكون ذلك مدعاة للتجلد والصبر. كما فعل ابن السمّك حين عزى الرّشيد في موت أحد أبنائه إذ قال له:

إن استطعت أن يكون شكرك لله حين قبضه أكثر من شكرك له حين وهبه؛ فإنه حين قبضه أحرز لك هبته، ولو سلم لم تسلم من فتنه... اهـ^(٢).

ومما يدعو إلى الصبر إدراك الأمل من الموت، وتذكر ما بعده من الشدائد والحساب، وهذا ما نجده واضحاً في كلام أبي بكر -رضي الله عنه-، فقد كان إذا عزى رجلاً قال: ليس مع العزاء مصيبة، ولا مع الجزع فائدة، الموت أهون مما قبله، وأشدّ مما بعده، اذكروا فقد رسول الله ﷺ تصغر مصيبتكم، وعظم الله أجركم... اهـ^(٣).

خامساً: مخاطبة القبور

حين يستحضر المرء أن إنساناً كان بالأمس حياً يتفاعل معه، ويتجاذب معه أطراف الحديث، ويعطيه، ويأخذ منه، يجول ويتحرك، يبتسم ويضحك، يتكلم ويتحدث، ثم ما هو إلا أن مات فغداً تحت التراب جثة هامدة، لا يردّ جواباً، ولا يستجيب لنداء، قد ذهبت عنه كل تلك السمات التي تدفع الحياة في عروقه، وشرائنه، وفوق ذلك تجثم عليه الأتربة، والصخور، ولا يملك الدفاع عن نفسه، وقد كان بالأمس ملء السمع والبصر، بل كان قطعة من أفئدة محبيه، وبسمة بين أهله وذويه، عندئذ يصبح القبر وما ينتشر حوله من قبور تراكمت فيها جثث الموتى بين شقى وسعيد صرخة مدوية في أعماق البشرية السقطة، لهذا رأينا كثيراً من الآداب النثرية عند العرب تناولت مخاطبة القبور، وتصف مشاعر الناس حيالها في قالب من التعزية طورا، والتأسي والاعتبار طورا آخر:

(٢) انظر: عيون الأخبار ج ٣/ ٥٤.

(١) انظر: نهاية الأرب ج ٥/ ١٦٧.

(٣) انظر: عيون الأخبار ج ٣/ ٦٠.

كان على بن أبي طالب -رضي الله عنه- إذا دخل المقبرة قال: أما المنازل فقد سكنت، وأما الأموال فقد قُسمت، وأما الأزواج فقد نُكحت، فهذا خبر ما عندنا، فليت شعري ما عندكم؟ ثم يقول: والذي نفسي بيده لو أذن لهم في الكلام لقالوا: إن خير الزاد التقوى... اهـ^(١).

فالإمام على -رضي الله عنه- يجعل من هذا الموقف حين شاهد القبور وقد تناثر، وامتدت كأنها تلخص التاريخ، وتوحد بين بنى البشر، ثم يصوغ من ذلك موعظة وتعزية للأحياء من الناس، وكأنه يقارن بين ما يتمتع به الحي من نعمة السكن، وصلة الأزواج بأولئك الذين مضوا، وخلفوا ما كان لديهم لغيرهم، ويخلص من هذا إلى النتيجة التي يريد الوصول إليها وهي قول الله - تعالى - : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وما تزال الحياة من لدن درجت البشرية على هذه الأرض تقذف بأبنائها في خضم الموت، وأعماق التراب، وهو يهضم كل ما يؤول إليه، لا يستعصى عليه غنى لغناه، ولا يقوى على مقاومته قوى لقوته.

قال بعضهم: مررت بيزيد الرقاشي وهو جالس بين المدينة والمقبرة، فقلت له: ما أجلسك هاهنا؟ قال: أنظر إلى هذين المعسكرين: فمعسكر يقذف الأحياء، ومعسكر يلتقم الموتى، ثم نادى بأعلى صوته: يا أهل القبور الموحشة، فقد نطق بالخراب فناؤها، ومهد بالتراب بناؤها، فمحلها مقرب، لا يتواصلون تواصل الإخوان، ولا يتزاورون تزاور الجيران، قد طحنهم بكللكه البلى، وأكلتهم الجنادل والثرى. اهـ^(٢).

وقد كان على بن أبي طالب -رضي الله عنه- إذا دخل المقبرة قال: السلام عليكم يا أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة من المؤمنين والمؤمنات، اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم... اهـ^(٣).
وقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه كيفية التسليم على أهل القبور:

قال بريدة -رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا - إن شاء الله - بكم لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية». اهـ^(٤).

(١) انظر: العقد الفريد ح ٢٣٦ / ٢٣٧.

(٢) انظر: العقد الفريد ح ٣ / ٢٣٦.

(٣) انظر: العقد الفريد ح ٣ / ٢٣٧.

(٤) انظر: صحيح مسلم كتاب الجنائز رقم / ٩٧٥.

كما نجد النبي ﷺ لمَّا أمر بقتلى بدر من المشركين أن يطرحوا في القليب خاطبهم فقال: «يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً فقال له أصحابه - رضوان الله عليهم -: يا رسول الله أتكلّم قوماً موتى؟ فقال لهم: لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حقٌّ». اهـ^(١).

سادساً: البكاء والتضجع:

ليس غريباً أن يتصدّع الفؤاد في لحظات الموت؛ لأنه فراق لارجعة بعده إلى الدنيا. وكلما كانت الصلة قوية بالميت، والعلاقة وطيدة، كلما كانت الصدمة أقسى وأهول. ومن هذا المسار عظم حزن الصحابة - رضی اللہ عنہم - بوفاة النبي ﷺ حتى ارتجت المدينة المنورة بالبكاء، ودهش الناس لفقد ذلك الحبيب الذي ملأ حياتهم بالخير، وقادهم على دروب الهداية، وغذى عقولهم وأرواحهم بمعين الكتاب والسنة، وليس غريباً أن يلجأ المرء عند حلول المصيبة إلى البكاء.

وقد تحدّث علماء النفس عن هذه الظاهرة، وأثرها في نزح معين الحزن، مع ما يرتبط بذلك من التفكير في أمر الدنيا والآخرة، والإجابة إلى الله - عز وجل. . . اهـ.

سابعاً: ذكر الفضائل:

وهو المعروف بالتأبين؛ لأنه يعتمد على ذكر فضائل الميت، ولكنه باستعمال الأفعال الماضية ومن ذلك ما فعله علي بن أبي طالب - رضی اللہ عنہ - في تأبين أبي بكر - رضی اللہ عنہ -، فكان ممّا قال: صدّقت رسول الله ﷺ حين كذّبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، سمّاك الله في كتابه صديقاً فقال - تعالى -: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٣٣].

وكنت للإسلام حصناً، وعلى الكافرين عذاباً، لم تغلّ حجّتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك، كنت كالجبل لم تحركه العواصف، ولا ترزله القواصف، كنت كما قال رسول الله ﷺ عنك: ضعيفاً في بدنك، قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، قليلاً في الأرض، كثيراً عند المؤمنين، لم يكن لأحد عندك مطمع، ولا لأحد عندك هواة، فالقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه، والضعيف عندك قوى حتى تأخذ الحق له. . . اهـ^(٢).

(١) انظر: سيرة النبي لابن هشام ج ٢ / ٢٨٠.

(٢) انظر: العقد الفريد ج ٣ / ٢٤٠، ونهاية الأرب ج ٥ / ١٦٩.

فالإمام عليّ -رضي الله عنه- يستحضر صورة أبي بكر -رضي الله عنه-، ثم يوجه إليه الحديث مما يشير إلى حضوره في ذهنه .

وعلى هذه الشاكلة ما فعله عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- حينما وقف على قبر عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، وقد فاتته الصلاة عليه فبكى، ثم قال: والله لئن فاتتني الصلاة عليك فلا فاتني حسن الثناء عليك أما والله إنك كنت سخيًا بالحق، بخيلًا بالباطل، ترضى حين الرضا، وتسخط حين السخط، وما كنت غيابة، ولا مدًا، فجزاك الله عن الإسلام خيرًا . . اهـ^(١).

ووقف عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- على قبر خباب بن الارت -رضي الله عنه- فقال: رحم الله خبابًا، لقد أسلم راغبًا، وجاهد طائعًا، وعاش زاهدًا، وابتلى في جسمه فصبر، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً . . اهـ^(٢).

ولمّا توفي عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه-: قام ابنه الحسن -رضي الله عنه- فقال: أيها الناس: إنه قبض فيكم الليلة رجل لم يسبقه الأولون، ولم يدركه الآخرون، قد كان رسول الله ﷺ يبعثه فيكتنفه جبريل عن يمينه، وميكائيل عن شماله، ولا ينثنى حتى يفتح الله له، ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم أعدّها لخدام له . . اهـ^(٣).

-والله أعلم-

الموضوع
الحادي عشر

تعازي العصر الجاهلي

أولاً: تعزية الإخوة:

قال المبرد: مات أخ لبعض ملوك اليمَن فعزّاه بعض العرب، فقال في تعزيتة: إن الخلق للخالق، والشكر للمنعم، والتسليم للقادر، ولا بدّ مما هو كائن، ولا سبيل إلى رجوع ما قد فات، وقد أقام معك ما سيذهب عنك، أو ستركه، فما الجزع مما لا بدّ منه؟ وما الطمع فيما لا يرجي؟ وما الحيلة فيما سيُنقل عنك، أو تنتقل عنه؟ وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفرع بعد أصله؟ وأحقّ الأشياء عند المصائب الصبر، وأهل هذه الدنيا سفر لا يحطّون الرّكاب إلا في غيرها، فما أحسن الشكر عند النعم، والتسليم عند الغير، فاعتبر بمن قد رأيت من أهل الجزع. واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وإنما ابتلاك المنعم، وأخذ منك المعطى، فإن نسيت الصبر فلا تغفل عن الشكر.

وما أصغر المصيبة اليوم مع عظم المصيبة في غد، فاستقبل المصيبة بالحسنة تستخلف بها نعمة، فإنما نحن في الدنيا أغراض تُتّضل فيها المنايا، لا تُنال نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يستقبل مُعمر يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله، ولا تحدث له زيادة في أكلة إلا بنفاد ما قبلها من رزق.

ثانياً: تعزية أكثم بن صيفي لعمر بن هند:

قال ابن عبد ربّه: عزّى أكثم بن صيفي عمرو بن هند ملك العرب في أخيه فقال له: أيها الملك إن أهل هذه الدار سَفَر لا يحلّون عَقْد الرّحال إلا في غيرها، وقد أتاك ما ليس بمرود عنك، وارتحل عنك ما ليس برّاجع إليك، وأقدم معك ما سيطعن عنك ويدعك. واعلم أن الدنيا ثلاثة أيام: فأمس عظة وشاهد عدل، فجعلك بنفسه، وأبقى لك عليه حكمك، واليوم غنيمة وصديق، أتاك ولم تأته، طالت عليك غيبته، وستسرع عنك رحلته، وغدا لا تدري من أهله، وسيأتيك إن وجدك، فما أحسن الشكر للمنعم، والتسليم للقادر.

وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصولها؟ واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وخير من الخير معطيه، وشرّ من الشرّ فاعله. اهـ^(١).

-والله أعلم-

(١) انظر: العقد الفريد ج ٣ / ٣٠٧، ونهاية الأرب للنويري ج ٥ / ١٦٥.

تعازي عصر صدر الإسلام

الموضوع
الثاني عشر

أولاً: تعزية الآباء:

عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال :
دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين^(١) وكان ظنوا لإبراهيم -عليه السلام- ، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله .
ثم دخلنا عليه بعد ذلك ، وإبراهيم يجود بنفسه ، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان ، فقال له عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه : وأنت يا رسول الله ؟ فقال : «يا ابن عوف إنها رحمة» ، ثم أتبعها بأخرى ، فقال ﷺ : «إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا لفرأقك يا إبراهيم لمحزونون» . . اهـ^(٢)

ثانياً: تعزية النفس:

قالت «عائشة» أم المؤمنين -رضي الله عنها : كن أزواج النبي ﷺ عنده ، لم تغادر منهن واحدة ، فأقبلت «فاطمة» -رضي الله عنها- تمشي : ماتخطى مشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئاً ، فلما رآها النبي ﷺ رحب بها ، ثم أجلسها عن يمينه ، ثم سارها ، فبكت بكاء شديداً ، فلما رأى جزعها سارها الثانية فضحكت .
فقلت لها : خصك رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسرار ، ثم أنت تبكين ؟ فلما قام رسول الله ﷺ سألتها : ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ فقالت : ما كنت أفشى على رسول الله ﷺ سره .

قالت - أي «عائشة» رضي الله عنها - : فلما توفي رسول الله ﷺ قلت : عزمت عليك بمالي عليك من الحق لما حدثتني ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ فقالت : أما الآن فنعم : أما حين سارتني في المرة الأولى فأخبرني أن جبريل كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة ، وأنه عارضه الآن مرتين ، وإني لأرى الأجل إلا قد اقترب ، فاتقى الله واصبري ، فإنه نعم السلف أنا لك . قالت : فبكيت بكائي الذي رأيت .

(١) أبو سيف القين : زوج أم سيف ، ظن إبراهيم ابن النبي ﷺ : أي : أبوه من الرضاغة ، وكان أبو سيف قيناً : أي حداداً انظر : صحيح مسلم كتاب الفضائل ورقم الحديث / ٢٣١٥ .

(٢) هذا الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجنائز ، ورقم الحديث / ١٢١٦ .

فلما رأى جزعى سارتنى الثانية، فقال: «يا فاطمة أما ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين؟ قالت: فضحكت ضحكى الذى رأيت». اهـ^(١).

وقال ابن سعد فى الطبقات الكبرى: جاءت «عائشة أم المؤمنين» -رضى الله عنها- إلى أبى بكر -رضى الله عنه- وهو يعالج ما يعالج الميت ونفسه فى صدره، فتمثلت هذا البيت:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى .: إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
فنظر إليها كالغضبان، ثم قال: ليس كذاك يا أم المؤمنين، ولكن قولى:
﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]، ثم قال: إني قد كنت
نحلتك حائطا، وإن فى نفسى منه شيئا فردّيه إلى الميراث، قالت: نعم، فردّته.
ثم قال أبو بكر: أما أنا فمنذ أن ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم دينارا،
ولا درهما، ولكننا قد أكلنا جريش طعامهم، ولبسنا من خشن ثيابهم، وليس عندنا
من فى المسلمين قليل ولا كثير، إلا هذا العبد الحبشى، وهذا البعير الناضح، وجرد
هذه القطيفة، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر وابرنى منهن، ففعلت، فلما جاء الرسول
عمر بكى، وقال: رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده، يا غلام ارفعهن. اهـ^(٢).

وقال ابن عبد ربّه: لما احتضر عمرو بن العاص -رضى الله عنه- جمع بنيه فقال
لهم: يا بنى لا تغفون عني من أمر الله شيئا، فقالوا: يا أبانا إنه الموت، ولو كان غيره
لوقيناك بأنفسنا.

فقال: أستودنى، فأسندوه، ثم قال: اللهم إنك أمرتنى فلم أأتمر، وزجرتنى
فلم أزدجر، اللهم لا قوى فأنصر، ولا برىء فاعتذر، ولا مستكبر بل مستغفر،
استغفرك وأتوب إليك، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧].
فلم يزل يكررها حتى مات. اهـ^(٣).

ثالثا: تعزية الإخوة:

قال أبو العباس المبرّد: حدثنى العباس بن الفرج الرياشى عن محمد بن عبد الله
الأنصارى قال: صلى أبو بكر -رضى الله عنه- صلاة الصبح يوما، فلما انفتل قام
متمم بن نيرة فى آخر الناس، وكان رجلا أعور دميما، فاتكأ على قوسه، ثم قال:

(١) الحديث فى صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة الحديث رقم ٢٤٥٠.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ / ١٩٦. (٣) انظر: العقد الفريد ج ٣ / ٢٣٣.

نعم القَتِيل إذا الرياح تناوحت .: خلف البيوت قُتِلَت يا ابن الأَزُور
 أَدْعُوته باللَّهِ ثُمَّ غَدَرْتَهُ .: لو هُوَ دَعَاكَ بِذِمَّةٍ لَمْ يَغْدُرْ
 وَأَوْمَأَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ مَا دَعَوْتَهُ، وَلَا غَدَرْتُ بِهِ.
 فَقَامَ إِلَيْهِ عُمَرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فَقَالَ: لَوِ دِدْتُ أَنَّكَ رَثِيْتُ أَخِي بِمَا رَثَيْتَ بِهِ أَخَاكَ.
 فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا حَفْصٍ: لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَخِي صَارَ حَيْثُ أَخَوُكَ مَا رَيْتُهُ، فَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ
 أَخَاكَ قُتِلَ شَهِيدًا.

فَقَالَ عُمَرُ: مَا عَزَّانِي أَحَدٌ بِمِثْلِ تَعْزِيَّتِكَ. اهـ^(١).

-وَاللَّهُ أَعْلَمُ-

(١) انظر: التعلّٰى والمراثى ص ٢٠-٢١، والكامل لابن الأثير ج٣/ ١٤٤٦-١٤٤٨.

الموضوع
الثالث عشر

تعازي العصر الأموي

أولاً: التعزية لطلب الأجر والمثوبة،

قال أبو العباس المبرّد: ذكر الحرّمازى أنّ الأحنف بن قيس لما مات وكان موته بالكوفة، مشى مُصنّب بن الزبير في جنازته، ثمّ قال: اليوم مات سيّد العرب. فلما دُفِن قامت امرأة على قبره - أحسبها من [بنى منقر] -، فقالت: نسأل الله الذى فجعنا بموتك، وابتلانا بفقدك، أن يجعل سبيل الخير سبيلك، ودليل الخير دليلك، وأن يوسّع لك فى قبرك، ويغفر لك يوم حشرك، فوالله لقد كنت فى المحافل شريفاً، وعلى الأرامل عطوفاً، ولقد كنت فى الحىّ مسوداً، وإلى الخليفة موفداً، ولقد كانوا لقولك مستمعين، ولرايك متّبعين. . اهـ^(١).

ثانياً: تعزية الخلفاء،

قال عبد الله بن همّام السلولى ليزيد بن معاوية فى موت ولده: يا أمير المؤمنين: أجرك الله على الرّزية، وبارك لك فى العطية، وأعانك على الرعيّة، فقد رُزئتَ عظيماً، وأعطيت جسيماً، فاشكر الله على ما أعطيت، واصبر على ما رزئت، فقدت خليفة الله، ومُنحت خلافة الله، ففارقت جليلاً، ووهبتَ جزيلاً، إذ قضى معاوية نحبّه، غفر الله ذنبه، وولّيتَ الرياسة، فأعطيت السياسة، فأوردك الله موارد السرود، ووفّقك لصالح الأمور. . اهـ^(٢).

وعزّى محمد بن الوليد بن عتبة الوليد بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين ليسْغلك من أقبل من الموت إليك، عمّن هو فى شغل ممّا دخل عليك، وأعددتْ لزوله عُدّة تكون لك حجاباً من الجزع، وستراً من النار.

فقال: يا محمد أرجو ألا تكون رأيت غفلة تُنبّه عليها، وما توفيقى إلا بالله.

فقال محمد: يا أمير المؤمنين إنه لو استغنى أحد عن موعظة بفضل لكته. . اهـ^(٣).

(١) انظر: الكامل فى التاريخ ج ٣ / ١٤٥٧.

(٢) انظر: زهر الآداب وثمر الآلآباب ج ٤ / ٩١.

(٣) انظر: عيون الأخبار ج ٣ / ٥٨.

ثالثاً: يتبع تعزية الخلفاء:

قال ابن عبد ربّه: قال بعض الحكماء لسليمان بن عبد الملك لما أصيب بابنه أيوب: يا أمير المؤمنين إن مثلك لا يوعظ إلا بدون علمه، فإن رأيت أن تقدّم ما أخرت العجزة من حسن العزاء، والصبر على المصيبة، فترضى ربك، وتريح بدنك فافعل . . .^(١)

وقال ابن عبد ربّه: توفيت أخت لـ عمر بن عبد العزيز، فلما فرغ من دفنها دنا إليه رجل فعزاه، فلم يرد عليه شيئاً، ثم دنا إليه آخر فعزاه، فلم يرد عليه شيئاً، فلما رأى الناس ذلك أمسكوا عنه، ومشوا معه، فلما بلغ الباب أقبل على الناس بوجهه، وقال: أدركت الناس، وهم لا يعزّون في امرأة إلا أن تكون أماً، انقلبوا رحمكم الله . . . اهـ^(٢)

رابعاً: تعزية من أجل البكاء والتفجع:

قال أبو العباس المبرّد: قال أبو الحسن المدائني: لما حضرت أيوب بن سليمان بن عبد الملك الوفاة، وكان وليّ عهد أبيه، دخل عليه أبوه، وهو يجود بنفسه، ومعه عمر بن عبد العزيز، وسعيد بن عقبة، ورجاء بن حيوة: فجعل ينظر في وجهه وهو يجود بنفسه، فخنقته العبرة فردّها، ثم نظر إلينا، فقال: إنه والله ما يملك العبد أن يسبق إلى قلبه الوجد عند المصيبة، والناس عند ذلك مختلفون: فمنهم من يغلب صبره جزعه، فذلك الجلد الحازم المحتسب، ومنهم من يغلب جزعه صبره، فذلك المغلوب الضعيف، وليست منكم حشمة، وإنّي أجد في قلبي لوعة، إن لم أبرّدها بعبرة خشيت أن تنصدع كبدي كمداً، وأسفاً.

فقال له عمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين الصبر أولى بك فلا تحبطن أجرك.

قال سعيد بن عقبة: فنظر إلى، وإلى رجاء بن حيوة نظر مستغيث.

أمّا رجاء فقال: يا أمير المؤمنين افعل، فإنّي لا أرى بأساً ما لم تأت الأمر المفطر، فقد بلغني أن رسول الله ﷺ: لما مات ابنه إبراهيم اشتدّ وجده عليه، فدمعت عيناه، فقال: «تدمع العين، ويوجع القلب، ولا نقول ما يسخط الربّ، وإنّا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

فقال عمر: يا رجاء: هذا ما صنعت بأمر المؤمنين.

فقال: دعه يا أبا حفص يقض من بكائه وطراً؛ فإنه لو لم يخرج ما في صدره ما ترى لخفت أن يأتي عليه، ثم رأت عبرته، فدعا بماء فغسل وجهه، فأقبل علينا، وقد قضى الفتى، فأمر بجهازه، وخرج يمشي أمام جنازته، فلما دفن، وحشي عليه التراب وقف قليلاً ينظر إلى قبره، ثم قال:

(٢) انظر: العقد الفريد ج ٣ / ٣١٠

(١) انظر: العقد الفريد ج ٣ / ٣١١

وقفتُ على قبر مقيم بقفرة . . . متاع قليل من حبيب مفارق
ثم قال له عمر: يا أمير المؤمنين الصبر؛ فإنه أقرب إلى الله وسيلة، وليس الجزع
يحيى من مات، وبالله العصمة والتوفيق . . . اهـ^(١)

خامساً: تعزية النفس:

قال عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك، وقد اشتد به الألم: كيف تجددك يا بني؟
قال: أجدني في الموت فاحتسبني، فإن ثواب الله خير لك مني .
قال: والله يا بني لأن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك .
فقال: وأنا والله لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب . . . اهـ^(٢)
وقال ابن عبد البر: لما نزل بهشام بن عبد الملك الموت نظر إلى أولاده يبكون
حول، فقال لهم: جاد لكم والدكم بالدنيا، وجدتم له بالبكاء، وترك لكم ما جمع،
وتركتم عليه ما اكتسب، ما أعظم منقلبه إن لم يغفر الله له . . . اهـ^(٣)

سادساً: تعزية الآباء:

قال المبرد: قال عمر بن عبد العزيز عند وفاة ابنه عبد الملك: الحمد لله الذي
جعل الموت حتماً واجباً على خلقه، ثم سوى فيه بينهم، فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ
المَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] .

فليعلم ذوو النهى أنهم صاثرون إلى قبورهم، مفردون بأعمالهم، واعلموا أن عند
الله مسألة فاحصة؛ فقال - عز وجل -:
﴿فَوربك لسألتهم أجمعين﴾ (١٦) عما كانوا يعملون ﴿١٧﴾ . . . اهـ^(٤) [الحجر: ٩٢-٩٣] .

سابعاً: تعزية الخلاء:

قال ابن عبد ربه:

لما احتضر عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - استأذن عليه مسلمة بن عبد الملك
فأذن له، وأمره أن يخفف الوقفة، فلما دخل عند رأسه قال: جزاك الله يا أمير المؤمنين عنا
خييراً، فلقد ألت لنا قلوباً كانت علينا قاسية، وجعلت لنا في الصالحين ذكراً . . . اهـ^(٥)
-والله أعلم-

(١) انظر: وفيات الأعيان ج ٢ / ٣٠٣، والتعاوي والمراثي ص ١٤٤-١٤٦، والكمال في التاريخ ج ٣ / ١٤١٧.

ووفيات الأعيان ج ٢ / ٣٠٢-٣٠٣.

(٢) انظر: بهجة المجالس ج ٣ / ٣٧١.

(٣) انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب ص ١٦٦.

(٤) انظر: العقد الفريد ج ٣ / ٣٩٧.

(٥) انظر: التعاوي والمراثي ص ٤٦-٤٧.

تعازي العصر العباسي

الموضوع
الرابع عشر

أولاً : تعزية الآباء :

قال الجاحظ : مات ذرّبن أبي ذرّ الهمدانيّ، فوقف أبوه على قبره، فقال : يا ذرّ، والله ما بنا إليك من فاقة، وما بنا إلى أحد سوى الله من حاجة. يا ذرّ شغلني الحزن لك عن الحزن عليك، ثم قال : اللهم إنك وعدتني بالصبر على ذرّ رحمتك، اللهم قد وهبتُ ما جعلت لي من أجر على ذرّ لذرّ، فلا تعرفه قبيحا من عمله. اللهم قد وهبتُ له إساءته إلى فهب لي إساءته إلى نفسه، فإنك أجود وأكرم، فلما انصرف عنه التفت إلى قبره وقال : يا ذرّ قد انصرفنا وتركناك، ولو أقمنا ما نفعناك . . اهـ^(١).

ثانياً : تعزية الخلفاء :

قال ابن عبد ربّه : عزّى شبيب بن شيبه المنصور في أخيه أبي العباس فقال : جعل الله ثواب ما رزّنت به لك أجرا، وأعقبك عليه صبّرا، وختم لك ذلك بعافية تامّة، ونعمة عامّة، فثواب الله خير لك منه، وما عند الله خير له منك، وأحق ما صبر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل . . اهـ^(٢).
وقال ابن عبد ربّه :

لما مات المنصور أمير المؤمنين : قدمت وفود الانصار على أمير المؤمنين المهدي، وقدم فيهم أبو العيّن المحدث، فتقدّم إلى التعزية، فقال : أجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله، وبارك الله لأمير المؤمنين فيما خلفه له، فلا مصيبة أعظم من مصيبة إمام والد، ولا عقبى أفضل من خلافة الله على أوليائه، فاقبل من الله أفضل العطية، واصبر له على الرزية . . اهـ^(٣).

ثالثاً : تعزية لذكر الفضائل :

قال ابن قتيبة :

قال ابن السّمّاك يوم مات داود الطائيّ : إنّ داود - رحمه الله - نظر بقلبه إلى ما بين يديه من آخرته فأعشى بصر القلب بصير العين، فكان كأنه لا ينظر إلى ما إليه تنظرون،

(١) انظر : البيان والتبيين ج ٣ / ١٤٥.

(٢) انظر : العقد الفريد ج ٢ / ٣٠٨.

(٣) انظر : العقد الفريد ج ٢ / ٣٠٨.

وكانكم لا تنظرون إلى ما إليه ينظر، فأنتم منه تعجبون، وهو منكم يعجب، فلما رآكم راغبين مذهولين، مغرورين، قد أذهلت الدنيا عقولكم، وأماتت بحبها قلوبكم، استوحش منكم، فكنت إذا نظرت إليه نظرت إلى حى وسط أموات. ياداوود ما أعجب شأنك بين أهل زمانك، أهنت نفسك وإنما تريد إكرامها، وأتعبتها وإنما تريد راحتها، أخشنت المطعم وإنما تريد طيبه، وأخشنت الملبس وإنما تريد لينه، ثم أمت نفسك قبل أن تموت، وقبرتها قبل أن تقبر، وعذبتها ولما تعذب، وأغنيها عن الدنيا لكيلا تذكر، رغبته نفسك عن الدنيا فلم ترها لك قدرا إلى الآخرة، فما أظنك إلا وقد ظفرت بما طلبت، كان سيماك فى سرّك، ولم تكن سيماك فى علانيتك، تفقّهت فى دينك، وتركت الناس يُغنّون، وسمعت الحديث وتركتهم يتحدّثون، وخرست عن القول وتركتهم يتكلمون، ولا تحسد الأخيار، ولا تعيب الأشرار، ولا تقبل من السلطان عطية، ولا من الإخوان هدية، آتس ما تكون إذا كنت بالله خاليا.

فمن سمع بمثلك وصبر صبرك، لا أحسبك إلا وقد أتعبت العابدين بعدك، سجت نفسك بيتك: فلا محدث لك، ولا جليس معك، ولا فراش تحتك، ولا ستر على بابك، ولا قلة يبرد فيها ماؤك، ولا صحفة يكون فيها غذاؤك.

ياداوود ما كنت تشتهى من الماء بارده، ولا من الطعام طيبه، ولا من اللباس لينه. ولكن زهدت فيه لما بين يديك، فما أصغر ما بذلت، وما أحقر ما تركت، فلما مت غفر الله لك بموتك. . . اهـ^(١)

رابعاً: تعزية الأبناء:

قال ابن عبد ربّه:

وقفت أعرابية على قبر أبيها، فقالت: يا أبت إن فى الله - تبارك وتعالى - من فقدك عوضاً، وفى رسول الله ﷺ من مصيبتك أسوة، ثم قالت: اللهم نزل بك عبدك مقفراً من الزاد، غنياً عما فى أيدي العباد، فقيراً إلى ما فى يدك يا جواد، أنت يا رب خير من نزل به المؤمنون، واستغنى بفضل المقلّون، وولج فى سعة رحمته المذنبون، ثم انصرفت. . . اهـ^(٢)

-والله أعلم-

(٢) انظر: العقد الفريد ج ٣ / ٢٤٢.

(١) انظر: عيون الأخبار ج ٢ / ٣١٥-٣١٦.

الموضوع
الخامس عشر

مواظب متنوعة

أولاً : موعظة الربيع بن زياد لعمربن الخطاب -رضي الله عنهما:

عن عبد الله بن بريدة : أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- جمع الناس لقدم الوفد، فقال لابن الأرقم : انظر أصحاب نبينا محمد ﷺ ، فأذن لهم أول الناس ، ثم القرن الذين يلونهم ، فدخلوا فصقوا أمامه ، فنظر فإذا رجل ضخيم عليه مقطعة برود ، فأوما إليه عمر ، فاتاه ، فقال عمر : إيه - ثلاث مرات - ، فقال الرجل : إيه : ثلاث مرآت ، فقال عمر : أف ، ثم قام فنظر فإذا الأشعري : رجل أبيض ، ضعيف الجسم ، قصير ، ضعيف اللسان ، فأوما إليه ، فاتاه ، فقال عمر إيه ، فقال الأشعري : يا أمير المؤمنين افتح حديثا فتحدثك ، فقال عمر : أف ، فإنه لن ينفعك راعي ضأن ، فنظر فإذا رجل أبيض خفيف الجسم ، فأوما إليه فاتاه ، فقال له عمر : إيه ، فوثب فحمد الله ، وأثنى عليه ، ووعظ بالله ، ثم قال : إنك وليت أمر هذه الأمة فائق الله فيما وليت من أمر هذه الأمة ، وأهل رعيته في نفسك خاصة ، فإنك محاسب ومسئول .

وإنما أنت أمين ، وعليك أن تؤدي ما عليك من الأمانة ؛ فتعطى أجرك على قدر عملك . فقال عمر : ما صدقني رجل منذ استخلفت غيرك ، من أنت ؟ قال : أنا الربيع بن زياد . فقال : أخو المهاجر بن زياد ؟ قال : نعم .

فجهز عمر جيشا ، واستعمل الأشعري ، ثم قال : انظر الربيع بن زياد فإن يك صادقا فيما قال فإن عنده عونا على هذا الأمر فاستعمله ، ثم لا يأتين عليك عشرة إلا تعاهدت منه عمله ، وكتبت إلى سيرته في عمله حتى كاني أنا الذي استعمله ، ثم قال : عهد إلينا النبي ﷺ فقال : « إن أخوف ما أخشى عليكم بعدى منافق عليم اللسان » .^(١)

ثانياً : موعظة زياد بن حنظلة التميمي -رضي الله عنه- لعمربن الخطاب -رضي الله عنه:

قال أبو الفضل سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ) : قام زياد بن حنظلة التميمي ، فقال : يا أمير المؤمنين احذر من إن أكرمته أهانك ، وإن أهنته أكرمتك . فقال عمر : من هذا ؟ قال : جسدك إن أنت تابعت بين بطنك ، وفرجك فيما يريدان منك ، فضحاك ، وأهاناك في الدنيا والآخرة ، وإن أهنتهما وعصيتهما ، وقويت عليهما زاناك في الدنيا والآخرة .^(٢)

(١) انظر : كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال : ج ١٣ : ٣٨٩ - ٣٩٠ .

(٢) انظر : المجلس الصالح والأيس الناصح ، ص ٢١٩ .

ثالثاً: موعظة سعيد بن عامر - رضى الله عنه - لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه :-
قال سعيد بن عامر لعمر : إني موصيك بكلمات من جوامع الإسلام ، ومعالمه ،
قال : أجل . فإن الله قد جعل عندك إرباً .

قال : اخش الله في الناس ، ولا تخش الناس في الله ، ولا يخالف قولك فعلك ،
فإن خير القول ما صدقه الفعل ، ولا تقض في أمر واحد بقضائين ؛ فيختلف عليك
أمرك ، وأحب لقريب المسلمين وبعيدهم ما تحب لنفسك ، وخض الفمرات إلى
الحق ، ولا تخف في الله لومة لائم .. اهـ (١) .

رابعاً: موعظة علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه :-
قال علي لعمر : إن أردت أن تلحق صاحبك فأقصر الأمل ، وكل دون
الشعب ، وارقع القميص ، واخصف النعل .. اهـ (٢) .

خامساً: موعظة خولة بنت حكيم - رضى الله عنها - لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه :-
خرج عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يوماً إلى السوق ، ومعه الجارود فإذا
امراً عجوزاً ، فسلم عليها عمر فردت عليه السلام ، ثم قالت : هيه يا عمر ، عهدتك
والله تسمى عميراً ، ثم سميت أمير المؤمنين ، فاتق الله في الرعية ، واعلم أن من خاف
الموت خشي الموت ، فبكى عمر ، فقال الجارود : لقد اجترأت على أمير المؤمنين ،
وابكيتك ، فأشار عمر : أن دعها ، ثم قال له : أما تعرف هذه؟ قال : لا ، قال : هذه خولة
بنت حكيم التي سمع الله قولها ، فعمر أخرى أن يسمع كلامها .. اهـ (٣) .

سادساً: موعظة امرأة لزياد بن أبي سفيان :-
قال أبو الفضل سبط ابن الجوزي : دخلت امرأة على زياد بن أبي سفيان فقالت :
يا زياد ، فقال لها : مَهْ يَا أمة الله ، أما ترين الناس يقولون : أيها الأمير .
فقالت : قد دعوتك باسم إذا عُرِلت بقي معك ، فتعجب منها ، ثم قال : ما حاجتك؟
قالت : حلّ عن ولدي ؛ فإنه واحد أمّه ، وكاسب عياله ، وهو يقري الضيف ،
ويدفع عن الجار .

فقال لها : لا يجوز لي ؛ فإنه قتل النفس ، وأثم لو أخليت ، وأولياء الدّم يطالبون به .
فجمعت حصي في كفها ، ثم قالت : يا زياد ذنبك أكثر ، أو التزام هذا الحصا؟

(١) انظر : الجليس الصالح والأئیس الناصح ، ص ٢١٩ .

(٢) انظر : كنز العمال ج ٨ / ٢١٩ . (٣) انظر : الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء ص ٩٧ .

فقال : بل ذنبي .

فأخذت حصاة واحدة فضمتها فيما بينها ، وقالت : ضمّ هذا إلى سائر ذنوبك .
فأطلق ولدها ، وأرضى أصحاب المقتول .. ام^(١) .

سابعها : موعظة أعرابي لسليمان بن عبد الملك :

قال أبو عبدالله الحميدي : دخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك ، فقال له :
يا أمير المؤمنين إني مكلمك بكلام فاحتمله إن كرهته ، فإن من ورائه ما تحب وإن
كرهت أوله .

فقال سليمان : إنا لنجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصيحته ، ولا نأمن
غشه ، وأنت الناصح .

فقال : يا أمير المؤمنين أما إذا أمنتُ بادرة غضبك ، فإني أقول تأدية لحق الله ، وحق
رعيّتك : يا أمير المؤمنين إنه قد تكتفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم فابتاعوا دنياك
بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فهم حرب الآخرة
سلم الدنيا ، فلا تأمنهم على ما أتمتلك الله عليه ، فإنهم لا يألون الأمانة تضييعا ، والأمة
عسفا ، وأنت مسئول عما اجترحوا ، وليسوا مسئولين عما اجترحت ، ولا تصلح دنياهم
بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس جرما من باع آخرته بدنيا غيره .. ام^(٢) .

ثامنها : موعظة محمد بن كعب القرظي لعمر بن عبدالعزيز - رحمه الله تعالى :

دخل محمد بن كعب القرظي على عمر بن عبدالعزيز ، وهو يمسح عينيه من
الدموع ، فقال له : يا أمير المؤمنين إنما الدنيا سوق من الأسواق ، فمنها خرج الناس
بما ضرهم ، ومنها خرجوا بما نفعهم ، وكم من قوم غرهم منها الذي أصبحنا فيه ،
حتى أتاهم الموت فاستوعبهم ، فخرجوا منها ملومين ، لم يأخذوا منها لما أحبوا من
الآخرة عذّة ، ولا لما كرهوا جنة ، وأقسم ما جمعوا من لم يحمدهم ، وصاروا إلى من
لا يعذرهم ، فنحن محقّقون .

(١) انظر : الجليس الصالح والأنيس الناصح ص ٢٣٦ .

(٢) انظر : الذهب المبيوك ص ١٧٤ .

يا أمير المؤمنين : إنا ننظر إلى تلك الأعمال التي تغبطهم بها ، فتخلفهم فيها ، فاتق الله يا أمير المؤمنين ، واجعل في قلبك سبيل اثنتين : انظر الذي تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربك - عز وجل - فابتغ به البذل حيث لا يؤخذ البذل ، ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على من كان قبلك ترجوا أن تجوز عنك ، فاتق الله يا أمير المؤمنين وافتح الأبواب ، وسهّل الحجاب ، وانصر المظلوم ، وردّ الظالم ، ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله - عز وجل - : من إذا رضى لم يدخله رضا في الباطل ، وإذا غضب لم يخرج غضبه من الحق ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له . . . (١)

-والله أعلم-

(١) انظر : سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

الموضوع
السادس عشر

مواظب العصر العباسي

أولاً : مواظبة الأوزاعي لأبي العباس عبد الله بن محمد السفاح (ت ١٣٦هـ) :

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - : لما دخل عبد الله بن علي عم السفاح الذي أجلى بنى أمية عن الشام ، وأزال الله - سبحانه وتعالى - دولتهم على يده ، فطلب الأوزاعي ، فتغيب عنه ثلاثة أيام ، ثم حضر بين يديه .

قال الأوزاعي : دخلت عليه وهو على سرير وفي يده خيزرانة ، والمسودة عن يمينه وشماله ^(١) معهم السيوف مصلطة ، والعمد الحديد ، فسلمت عليه فلم يرد ، ونكت بتلك الخيزرانة التي في يده ، ثم قال : يا أوزاعي ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدي أولئك الظلمة عن العباد والبلاد ؟ : أجهاد ورباط هو ؟ .

فقلت : أيها الأمير سمعت يحيى بن سعيد الأنصاري ^(٢) .

يقول : قال محمد بن إبراهيم التميمي : سمعت علقمة بن وقاص يقول :

سمعت عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يقول :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ،

فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » اهـ ^(٣) .

قال : فنكت بالخيزرانة أشد مما كان ينكت ، وجعل من حوله يقبضون أيديهم

على قبضات سيوفهم .

ثم قال : يا أوزاعي ما تقول في دماء بنى أمية ؟

فقلت : قال رسول الله ﷺ : « لا يخل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : النفس

بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » اهـ ^(٤) .

فنكت بها أشد من ذلك ، ثم قال : ما تقول في أموالهم ؟

(١) المسودة : هم جيوش العباسيين ؛ لأنهم كانوا يلبسون السود .

(٢) وهو : فقيه ومحدث ، ولي القضاء بالمدينة المنورة في زمن (بنى أمية) ت ١٤٣ هـ .

(٣) انظر : صحيح البخاري كتاب الإيمان ، رقم / ١ .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه رقم / ١٦٧٦ .

فقلت : إن كانت في أيديهم حراما فهي حرام عليك أيضا ، وإن كانت لهم حلالا فلا تحل لك إلا بطريق شرعي ، فنكت أشد مما كان ينكت قبل ذلك ، ثم قال : ألا أوليك القضاء ؟ فقلت : إن أسلافك لم يكونوا يشقّون على في ذلك ، وإنّي أحب أن يتم ما ابتدأوني به من الإحسان ، فقال : كأنك تحب الانصراف .

فقلت : ورائي حرم وهم محتاجون إلى القيام عليهنّ وسترهنّ ، وقلوبهنّ مشغولة بسببي . فأمرني بالانصراف ، فلما خرجت إذا برسوله ورائي ، وإذا معه مائتا دينار ، فقال : يقول لك الأمير : استنفق هذه ، قال : فتصدّقت بها . . اهـ (١) .

ثانياً : موعظة صالح بن عبد الجليل للمهدي :

دخل صالح بن عبد الجليل ، وكان ناسكا مفوّها ، على المهدي ، فسأله أن يأذن له في الكلام ، فقال : تكلم .

فقال : يا أمير المؤمنين إنه لمّا سهل علينا ما توعر على غيرنا ، قمنا مقام الأداء عنهم ، وعن رسول الله ﷺ ، بإظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي عند انقطاع عذر الكتمان ، ولا سيما حين اتسمت بميسم التواضع ، فجمعنا وإياك مشهد من مشاهد التمحيص ليتمّ مؤدبنا على موعد الأداء ، وقابلنا على موعد القبول ، فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : من حجب الله عنه العلم عذّبه على الجهل ، وأشدّ منه عذابا من أقبل إليه العلم وأدبر عنه ، ومن أهدى الله إليه علما فلم يعمل به ، فقد رغب عن هديّة الله وقصر بها ، فاقبل ما أهدى إليك من ألسنتنا قبول تحقيق وعمل ، لا قبول سمعة ورياء . . اهـ (٢) .

ثالثاً : موعظة عبد الله بن عبد العزيز العمري لهارون الرشيد - رحمه الله :

قال ابن كثير - رحمه الله - : وعظ عبد الله بن عبد العزيز العمري هارون الرشيد يوما ، فاطنّب ، وأطيب ، وقال له وهو واقف على الصفا : انظر كم حول الكعبة من الناس ؟ فقال : كثير . فقال : كل منهم يُسأل يوم القيامة عن خاصّة نفسه ، وأنت تُسأل عنهم كلهم . فبكى الرشيد بكاء كثيرا ، ثم قال له : يا هارون إن الرجل ليُسرف في ماله فيستحقّ الحجر عليه ، فكيف بمن يسرف في أموال المسلمين كلهم ؟ ثم تركهم ، وانصرف الرشيد يبكي . . اهـ (٣) .

(١) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ / ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) انظر : عيون الأخبار ج ٢ / ٣٣٣ ، والعقد الفريد ج ٣ / ١٥٨ - ١٥٩ .

(٣) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ / ١٩٢ .

رابعاً: موعظة الفضيل بن عياض لهارون الرشيد - رحمه الله:

لَمَّا دَخَلَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ عَلَى هَارُونَ الرَّشِيدِ قَالَ: أَيُّكُمْ هَارُونَ الرَّشِيدُ؟
فَأَشَارُوا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: أَنْتَ هُوَ يَا حَسَنَ الْوَجْهِ، لَقَدْ وَلَّيْتَ أَمْرًا
عَظِيمًا، إِنِّي مَا رَأَيْتُ أَحَدًا هُوَ أَحْسَنُ وَجْهًا مِنْكَ، فَإِنْ قَدَرْتَ أَنْ لَا تَسْوَدَّ هَذَا الْوَجْهَ
بِلَفْحَةٍ مِنَ النَّارِ فَافْعَلْ، فَقَالَ: عَظَمَنِي، فَقَالَ لَهُ: مَاذَا أَعْظَمَكَ؟ هَذَا كِتَابُ اللَّهِ - تَعَالَى -
بَيْنَ الدَّفَتَيْنِ، انْظُرْ مَاذَا عُمِلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ، وَمَاذَا عُمِلَ بِمَنْ عَصَاهُ؟
وَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ يَغْوَصُونَ عَلَى النَّارِ غَوْصًا شَدِيدًا، وَيَطْلُبُونَهَا طَلَبًا حَثِيثًا.
أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ طَلَبُوا الْجَنَّةَ بِمِثْلِهَا، أَوْ أَيْسَرُ لَنَالُوهَا.
فَقَالَ: أَعِدْ إِلَيَّ، فَقَالَ: لَوْ لَمْ تَبْعَثْ إِلَيَّ لَمْ آتِكَ، وَإِنْ انْتَفَعْتَ بِمَا سَمِعْتَ مِنِّي
عَدْتُ إِلَيْكَ.. اهـ^(١).

-والله أعلم-

(١) انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج٨/ ١٠٥.

الموضوع
السابع عشر

خطبة النبي ﷺ

وقد تضمنته الخطبة الآتية:

أولاً: خطبة النبي ﷺ لما نزل عليه قول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].
عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي»، لبطون قريش، حتى إذا اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب -لعنه الله.

فقال النبي ﷺ: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي». قالوا: نعم. ما جربنا عليك إلا الصدق. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب -لعنه الله: تباً لك الهذا جمعتنا؟

فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ﴾ (٢)

[المسد: ١-٢]. اهـ (١)

ثانياً: أول خطبة خطبها النبي ﷺ بالمدينة المنورة:

فبعد أن حمد الله - تعالى -، وأثنى عليه بما هو أهله قال: «أما بعد: أيها الناس فقدّموا لأنفسكم، تعلّموا والله ليضعقنّ أحدكم، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربّه وليس له ترجمان، ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك، وآتيتك مالا، وأفضلت عليك فما قدّمت لنفسك؟ فلينظرنّ يميننا، وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم لينظرنّ قدّامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشقّ تمرّة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإنّ بها تجزى الحسنه عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» اهـ (٢).

ثالثاً: أول خطبة جمعة خطبها النبي ﷺ في المدينة المنورة:

قال أبو جعفر الطبري: أول خطبة جمعة خطبها النبي ﷺ بالمدينة المنورة: في بني سالم بن عمرو بن عوف -رضي الله عنه-:

(١) انظر: صحيح البخاري الحديث رقم ٢٦٣، وصحيح مسلم الحديث رقم ٢٠٨، وسنن الترمذي الحديث رقم ٣٣٦٣.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام ج١/ ٣٠٠.

«الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأستغفره، وأستهديه، وأومن به، ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى، ودين الحق، والنور والموعظة، على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، وفرط وضل ضلالاً بعيداً، وأوصيكم بتقوى الله؛ فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرى، وإنه تقوى لمن عمل به على وجل ومخافة، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة، فمن يصلح الذي بينه وبين الله من أمر السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره، وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم.

وما كان من سوى ذلك يودّ لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه، والله رءوف بالعباد، والذي صدق قوله، وأنجز وعده لا خلف لذلك؛ فإنه يقول: ﴿مَا يَدُلُّ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩].

واتقوا الله في عاجل أمركم، وآجله في السر والعلانية، فإنه ﴿مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [البقرة: ٢١٨].

﴿وَمَنْ يَطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الاحزاب: ٧١].

وإن تقوى الله توقى مقتته، وتوقى عقوبته، وتوقى سخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجه، وترضى الرب، وترفع الدرجة، خذوا بحظكم، ولا تفرطوا في جنب الله فقد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم، وسماكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حى عن بينة ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفيه ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضى على الناس، ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» (١).

رابعاً: خطبة للنبي ﷺ

قال -عليه الصلاة والسلام-: «إن الحمد لله، أحمدوه وأستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إن أحسن الحديث كتاب الله، قد أفلح من زينته الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أصدق الحديث وأبلغه، أحبوا من أحب الله وأحبوا الله من كل قلوبكم، ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تقسوا عليه قلوبكم، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، اتقوا الله حق تقاته، وصدقوا صالح ما تعملون بأقواهمكم، وتحابوا بروح الله بينكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» اهـ^(١).

خامساً: خطبة للنبي ﷺ في الحث على الجهاد

وقف النبي ﷺ في الناس يوم أحد خطيباً، فقال: «أيها الناس: أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه من العمل بطاعته، والتناهي عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر، وذخر لمن ذكر الذي عليه، ثم وطن نفسه على الصبر، واليقين، والجد، والنشاط، فإن جهاد العدو شديد كربه، قليل من يصبر عليه إلا من له عزم على رشده، إن الله مع من أطاعه، وإن الشيطان مع من عصاه، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله، وعليكم بالذي أمركم به، فإني حريص على رشدكم، إن الاختلاف، والتنازع، والتشيط من أمر العجز، والضعف مما لا يحب الله، ولا يعطى عليه النصر ولا الظفر.

أيها الناس: جدد في صدري أن من كان على حرام فرق الله بينه وبينه، ومن رغب عنه غفر الله ذنبه، ومن صلى على صلاة صلى الله عليه وملائكته عشراً، ومن أحسن من مسلم، أو كافر وقع أجره على الله في عاجل دنياه، أو أجل آخرته.

ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه بالجمعة يوم الجمعة إلا صبيهاً، أو امرأة، أو مريضاً، أو عبداً مملوكاً، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه، والله غني حميد، ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه، وإنه قد نثت في روعي الروح الأمين: أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها، لا ينقص منه شيء، وإن أبطأ عنها.

(١) انظر: دلائل النبوة لليهقي ج٢/ ٥٢٤، والبداية والنهاية لابن كثير ج٣/ ٢١٣.

فاتقوا الله ربكم وأجملوا في طلب الرزق، ولا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية ربكم، فإنه لا يقدر على ما عنده إلا بطاعته، وقد بين لكم الحلال والحرام غير أن بينهما شُبهاً من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلا من عصم، فمن تركها حفظ عرضه ودينه، ومن وقع فيها كان كالراعى إلى جنب الحمى أو شك أن يقع فيه، وليس ملك إلا وله حمى، ألا وإن حمى الله محارمه.

والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى عليه سائر الجسد، والسلام عليكم» اهـ^(١).

سادساً: خطبة للنبي ﷺ،

خطب النبي ﷺ الجمعة، فقال: «أيها الناس: توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُسْغَلُوا، وصلُّوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له، وكثرة الصدقة في السر والعلانية، تُرزقوا، وتُؤجروا، وتُنصروا.

واعلموا أن الله -عزَّ وجلَّ- قد افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا، في عامي هذا، في شهرى هذا، إلى يوم القيامة، في حياتي، ومن بعد موتي، فمن تركها وله إمام فلا جمع الله له شمله، ولا بارك له في أمره، ألا ولا حجَّ له، ألا ولا صوم له، ألا ولا صدقة له، ألا ولا برَّ له.

ألا ولا يؤمُّ أعرابى مهاجراً، ألا ولا يؤمُّ فاجرٌ مؤمناً، إلا أن يقهره سلطان يخاف سيفه، أو سوطه» اهـ^(٢).

سابعاً: خطبة للنبي ﷺ هي زواج ابنته «فاطمة» -رضي الله عنها-،

خطب النبي ﷺ أثناء عقد زواج ابنته «فاطمة» -رضي الله عنها-، على علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- فقال: «الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المرهوب من عذابه، المرغوب فيما عنده، النافذ أمره في سمائه وأرضه، الذي خلق الخلق بقدرته، وميزهم بدينه، وأكرمهم بنبية «محمد» ﷺ.

ثم إن الله تعالى جعل المصاهرة نسباً لاحقاً، وأمرًا مفترضاً، وشجَّ به الأرحام، وألزمه الأنام، قال -تبارك اسمه وتعالى ذكره-:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٤)

(١) انظر: كتاب المغازي ج١/ ٢٢١-٢٢٢، وجمهرة خطب العرب ج١/ ١٤٩-١٥٠.

(٢) انظر: سنن ابن ماجه باب فرض الجمعة: ج١/ ٣٤٣ رقم/ ١٠٨١.

فأمر الله بجري إلى قضائه، ولكل قضاء قدر، ولكل قدر أجل:

﴿يَمَحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

ثم إن ربي أمرني أن أزوجه «فاطمة» من علي بن أبي طالب، وقد زوجتها إياه، على أربعمئة مثقال فضة» (١).

ثامناً: خطبة للنبي ﷺ يوم فتح مكة:

وقف الهادي البشير ﷺ يوم فتح مكة على باب الكعبة، ثم قال:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صديق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة (٢)، أودم، أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدة البيت، وسقاية الحاج، وأو قتل الخطأ مثل العمد بالسوط، والعصا فيهما الدية مغلظة، منها أربعون خلفه (٣)، في بطونها أولادها.

يا معشر قريش: إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم خلق من تراب، ثم تلا:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

يا معشر قريش - أويا أهل مكة - ماترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا أخ كريم، وابن أخ كريم.

قال: «أذهبوا فأنتم الطلقاء» (٤).

تاسعاً: خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع:

خطب الهادي البشير ﷺ خطبة عظيمة جامعة شاملة قال فيها:

«الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن «محمداً» عبده ورسوله.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحكام على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير، أما بعد: أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم، فإنني لا أدري لعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقعي هذا.

(١) انظر: جمهرة خطب العرب ج ٣/ ٣٤٤-٣٤٥.

(٢) المأثرة: المكرمة.

(٣) الخلفة: الحامل من النياق.

(٤) انظر: تاريخ الطبري ج ٣/ ٦٠-٦١، والكامل لابن الأثير ج ٢/ ١٢١، وسيرة ابن هشام ج ٢/ ٢٧٣.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا ألا هل بلغت؟

اللهم أشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة، والسقاية، والعمد قود، وشبه العمدة ما قُتل بالعصا، والحجر فيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يش أن يعبد في أرضكم هذه. ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِقُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ [التوبة: ٣٧].

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض.

﴿ إِن عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ ﴾ [التوبة: ٣٦].

ثلاث متواليات وواحد فرد: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب: الذي بين جمادى، وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد.

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقاً، ولكم عليهن حقاً: لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن، وتنهجنوهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن، وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد.

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس، ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد.

فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده: كتاب الله، ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.
قالوا: نعم، قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس: إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش، وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته^(١).

عاشرة خطبة النبي ﷺ في مرضه الذي مات فيه:

عن الفضل بن عباس -رضي الله عنهما- قال: جاءني رسول الله ﷺ، فخرجت إليه، فوجدته موعوكا قد عصب رأسه، فقال: خذ بيدي يا فضل، فأخذت بيده حتى جلس على المنبر، ثم قال: ناد في الناس، فاجتمعوا إليه، فقال: «أما بعد أيها الناس: فإنني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وإنه قد دنا مني حقوق ما بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد مني، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه.

ألا وإن الشحنا ليس من طبعي، ولا من شأني، ألا وإن أحبكم إلى من أخذ مني حقا إن كان له، أو صلني من لقيت الله وأنا طيب النفس، وقد أرى أن هذا غير مغن عني حتى أقوم فيكم مرارا»^(٢).

-والله أعلم-

(١) انظر: البيان والتبيين ج٢/١٥، والعقد الفريد ج٢/١٣، وتاريخ الطبري ج٣/١٥١-١٥٢، والكامل لابن الأثير ج٢/١٤٦، وسيرة ابن هشام ج٤/٢٧٥-٢٧٦.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ج٣/١٨٩-١٩٠، ودلائل النبوة للبيهقي ج٧/١٧٩، والمجمع الكبير للطبراني ج١٨/ ٢٨.

خطب صدر الإسلام

الموضوع
التاسع عشر**أولاً : خطبة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - :**

يوم توفى الرسول ﷺ :

* دخل أبو بكر الصديق - رضوان الله عليه - على النبي ﷺ وهو مسجى بثوب ،

فكشف عنه الثوب ، وقال :

يا بى أنت وأمى يا رسول الله طبت حيا ، وطبت ميتا ، وانقطع لموتك ما لم ينقطع
لموت أحد من الأنبياء من النبوة ، فعظمت عن الصفة ، وجللت عن البكاء ، وخصصت
حتى صرت مسلاة ، وعممت حتى صرنا فيك سواء ، ولولا أن موتك كان اختيارا منك
لجدنا لموتك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك ماء الشنون ،
فأما ما لا نستطيع نفيه عنا : فكمد ، وإدناف ، يتخالفان ، ولا يبرحان ، اللهم فأبلغه
عنا السلام ، واذكرنا يا رسول الله عند ربك ، ولنكن في بالك ، فلو لا ما خلقت من
السكينة لم نقم لما خلقت من الوحشة اللهم أبلغ نبيك عنا ، واحفظه فينا .

* ثم خرج إلى الناس وهم في شديد غمراتهم ، وعظيم سكراتهم ، فخطب خطبة
قال فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن نبينا محمدا عبد الله
ورسوله ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ،
وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين ، ثم قال : أيها الناس : من كان يعبد
«محمدا» ، فإن «محمدا» قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت ،
وإن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعا ، وإن الله قد اختار لنبه ما عنده على
ما عندكم ، وقبضه إلى ثوابه ، وخلق فيكم كتابه ، وسنة نبه ، ولا يشغلنكم الشيطان
بموت نبيكم ، ولا يفتتنكم عن دينه . . . اهـ^(١)

ثانياً : خطبة أبي بكر - رضي الله عنه - في سقيفة بني ساعدة :

قال أبو جعفر الطبري : فبعد أن حمد الله أبو بكر ، واثني عليه قال : إن الله بعث
نبه «محمدا» ﷺ رسولا إلى خلقه ، وشهيدا على أمته ليعبدوا الله ويوحّدوا ، وهم
يعبدون من دونه آلهة شتى ، ويزعمون أنها لهم عند الله شافعة ، ولهم نافعة ، وإنما هي
حجر منحوت ، وخشب منجور ، ثم قرأ :

(١) انظر : زهر الآداب وثمر الألباب ج ١/ ٦٧-٦٩ .

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣].

فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه، والإيمان به، والمواساة له، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم، وكل الناس لهم مخالف، فلم يستوحشوا لقلة عددهم، فهم أول من عبد الله في الأرض، وأمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينافيهم ذلك إلا ظالم، وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته بمنزلةكم، فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء، لا تفتاتون بمشورة ولا نقضى دونكم الأمور... اهـ^(١).

ثالثا، خطبة لأبي بكر - رضي الله عنه - بعد توليته الخلافة:

قال - رضي الله عنه - بعد أن حمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله:
أما بعد: فيا أيها الناس، إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فكم قوتي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى أخذ الحق منه - إن شاء الله -، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يحضكم الله... اهـ^(٢).

رابعا، خطبة وعظية لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه -:

عن عروة بن الزبير بن العوام (رضي الله عنهما - ت ٩٣ هـ) قال:
خطب عمر بن الخطاب، فقال: إن الله - سبحانه وتعالى - قد استوجب عليكم الشكر، واتخذ عليكم الحجج فيما أتاكم من كرامة الآخرة عن غير مسألة منكم ولا رغبة منكم فيه إليه، فخلقكم الله - تبارك وتعالى - ولم تكونوا شيئا لنفسه

(١) انظر: تاريخ الطبري ج ٣ / ٢٢٠.

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ج ٦ / ٣٠٥.

وعبادته، وكان قادراً أن يجعلكم أمون خليفة عليه، ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بنى آدم، ومنها نعم اختص الله بها أهل دينكم، ثم صارت تلك النعم: خواصها وغوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم. اهـ^(١).

خامساً: خطبة عثمان بن عفان -رضي الله عنه- بعد مبايعته بالخلافة:
 * قال أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ):

لما بايع أهل الشورى عثمان خرج، وهو أشدهم كآبة، فأتى منبر رسول الله ﷺ، فخطب الناس: فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، وقال: إنكم في دار قلعة^(٢)، وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أنيتم صبحتم أو مسيتم، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، واعتبروا بمن مضى، ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً. اهـ^(٣).

سادساً: خطبة علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- عند زواجه بـ «فاطمة» -رضي الله عنها-:
 قال: الحمد لله الذي قرب من حامديه، ودنا من سائليه، ووعد بالجنة من يتقيه، وقطع بالنار عدد من يعصيه، أحمدته بجميع محامده وأياديه، وأشكره شكر من يعلم أنه خالقه وبأديه ومصوره ومنشيه ومميته ومحبيه، ومقربه، ومنجيه، ومشيه، ومجازيه، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تبلغه، وترضيه، وأشهد أن نبينا «محمدًا» عبده ورسوله، صلاة تعزه، وتعليه، وتشرفه، وتجتبه، أما بعد: فإن اجتماعنا مما قدره الله - تعالى - ورضيه، والنكاح مما أمر الله به، وهذا نبينا «محمد» ﷺ قد زوجني ابنته «فاطمة» على صداق: أربع مائة درهم وثمانين درهماً وقد رضيت به، وكفى بالله شهيداً. اهـ^(٤).

سابعاً: خطبة للحسين بن علي -رضي الله عنهما- في الخث على الجهاد:
 قال - رضي الله عنه -: يا عباد الله اتقوا الله، وكونوا من الدينس على حذر؛ فإن الدنيا لو بقيت على أحد، أو بقي عليها أحد، فكانت للأنبياء أحق بالبقاء، غير أن الله - سبحانه وتعالى - خلق الدنيا للفناء: فجديدها بال، ونعيمها مضمحل، وسرورها مكفهر، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، واتقوا الله لعلكم تفلحون.. اهـ^(٥).

-والله أعلم-

(٢) دار قلعة: أي دار تحوّل وارتحال.

(٤) انظر: جمهرة خطب العرب ج ٣/ ٣٤٥.

(١) انظر: تاريخ الطبري ج ٤/ ٢١٦-٢١٨.

(٣) انظر: تاريخ الأمم والملوك للطبري ج ٤/ ٢٤٣.

(٥) انظر: جمهرة خطب العرب ج ٢/ ٥١.

الموضوع
العشرون

خطبة العصر الأموي

أولاً : خطبة وعظية لعمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - :

قال : يا أيها الناس ، إنما أنتم أغراض تتنزل فيها المنايا ، إنكم لا تؤتون نعمة إلا بفراق أخرى ، وأى أكلة ليس معها غصة ؟ وأى جرعة ليس معها شرقة ؟ وإن أمس شاهد مقبول ، وإن اليوم حبيب مودع ، وهو يوشك الظعن ، وإن غدا آت بما فيه ، وأين يهرب من يتقلب فى يد طالبه إنه لا أقوى من طالب ، ولا أضعف من مطلوب ، وإنما سفر ستحلون عقد رحالكم فى غير هذه الدار ، ثم أنتم فروع أصول قد مضت ، فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله . اهـ (١) .

ثانياً : خطبة الحسن البصرى - رحمه الله تعالى - :

قال أبو عثمان الجاحظ : كان الحسن البصرى يقول : رحم الله امرأ كسب طيباً ، وأنفق قصداً ، وقدم فضلاً ، وجُهِوا هذه الفضول حيث وجهها الله ، وضعوها حيث أمر الله ؛ فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ، ويؤثرون بالفضل ، ألا إن هذا الموت قد أضر بالدنيا ففضحها ، فلا والله ما وجد ذولب فيها فرحاً ، فأياكم وهذه السبل المتفرقة التى جماعها الضلالة ، وميعادها النار .

أدركت من صدر هذه الأمة قوما كانوا إذا أجنهم الليل فقيام على أطرافهم : يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم فى فكاك رقابهم ، إذا عملوا الحسنة سرتهم ، وسألوا الله أن يتقبلها منهم ، وإذا عملوا سيئة ساءتهم وسألوا الله أن يغفر لهم .

يا ابن آدم إن كان لا يغنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يغنيك .

يا ابن آدم لا تعمل شيئاً من الحق رياء ، ولا تتركه حياء . اهـ (٢) .

ثالثاً : خطبة واصل بن عطاء الوعظية التى تجنب فيها حرف الراء :

وقال فيها : الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية ، الذى علا فى دنوه ، ودنا فى علوه ، فلا يحويه زمان ، ولا يحيط به مكان ، ولا يؤوده حفظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثال سبق ، بل أنشأه ابتداء ، وعدله اصطناعاً ، فأحسن كل شىء خلقه ، وتمم

(١) انظر : مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبى الحسن على بن الحسين السمعاني ج ٣ / ١٨١ . وانظر حيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز تصنيف أبى الفرج بن الجوزى ص ٢٥٠ .

(٢) انظر : البيان والتبيين للجاحظ ج ٣ / ١٣٥ - ١٣٦ .

مشيئته، وأوضح حكمته، فدل على ألوهيته، فسبحانه لا معقب لحكمه، ولا دافع لقضائه تواضع كل شيء لعظمته، وذل كل شيء لسلطانه، ووسع كل شيء فضله، لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، إلهها تقدست أسماؤه، وعظمت آلاؤه، وعلا عن صفات كل مخلوق، وتنزه عن شبيهه كل مصنوع، فلا تبلغه الأوهام، ولا تحيط به العقول، ولا الأفهام، يُعصى فيحلم، ويدعى فيسمع، ويقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما تفعلون، وأشهد شهادة حق، وقول صدق بإخلاص نية، وصحة طوية، إن نبينا «محمدًا بن عبد الله» عبد الله ونبيه، ابتعثه إلى خلقه بالبينه، والهدى، ودين الحق: فيبلغ ملكته^(١)، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله، لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يصد عنه زعم زاعم، ماضيا على سنته، موفيا على قصده، حتى آتاه اليقين، فصلى الله على نبينا «محمد» وعلى آله أفضل وأزكى، وأتم وأتمى، وأجل وأعلى، صلاة صلاحها على صفوة أنبيائه، وخالصة ملائكته، وأضعاف ذلك، إنه حميد مجيد.

أوصيكم عباد الله مع نفسي بتقوى الله، وأحضكم على ما يدينكم منه، ويزلفكم لديه، فإن تقوى الله أفضل زاد، وأحسن عاقبة في معاد، ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزيئها، وفواتن لذاتها، وشهوات آمالها؛ فإنه متاع قليل، ومدة إلى حين، وكل شيء منها يزول، فكم عانيتم من أعاجيبها، وكم نصبت لكم من حساباتها، وأهلكتم من جنح إليها، واعتمد عليها، أين الملوك الذين بنوا المدائن، وشيدوا المصانع، وأوثقوا الأبواب، وكانفوا الحجاب، وأعدوا الجياد، وملكوا البلاد؟ قبضتهم بمحملها، وعضتهم بأنيابها، فسكنوا اللحد، وأكلهم الدود، وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تحس منهم من أحد، فتزودوا عافاكم الله فإن أفضل الزاد التقوى، واتقوا الله يا أولى الألباب لعلمكم تفلحون.

جعلنا الله وإياكم ممن ينتفع بمواظبه، ويعمل لحظه وسعاده، وممن يسمع القول فيستبج أحسنه، أولئك هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب، وأعوذ بالله القوى من الشيطان الغوى، إن الله هو السميع العليم، نفعني الله وإياكم بالكتاب الحكيم، والوحي المبين، وأعاذني الله وإياكم من العذاب الاليم، وأدخلني وإياكم جنات النعيم. اهـ^(٢).

-والله أعلم-

(١) أي: رسالته.

(٢) انظر: جمهرة خطب العرب ج ٢/ ٥٠١-٥٠٣.

الموضوع
الواحد والعشرون

خطب العصر العباسي

أولاً : خطبة وعظية للأوزاعي:

قال - رحمه الله تعالى - : أيها الناس تقووا بهذه النعم التي أصبحت فيها على الهرب من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، فإنكم في دار الثواء فيها قليل، وأنتم مرتحلون وخلائف بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا آفئها، وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعماراً، وأمد أجساماً، وأعظم آثاراً، فنقبوا في البلاد مؤيدين بطش شديد، وأجسام كالعماد، فما لشت الأيام والليالي أن طوت مددهم، فما تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزاً، فأصبح كثير منهم في ديارهم جائعين، وأصبح الباقون ينظرون في مساكن خاوية، وأصبحتم من بعدهم في أجل منقوص، فلا تكونوا أمثابهم كمن خدعه الأمل، واغتروا بطول الأجل... أمه (١).

ثانياً : خطبة في الوعظ لهارون الرشيد:

قال - رحمه الله تعالى - : الحمد لله على نعمه، ونستعينه على طاعته، ونستصره على أعدائه، ونؤمن به حقاً، ونتوكل عليه مفوضين إليه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا «محمدًا» عبد الله ورسوله، بعثه الله على فترة من الرسل، وإدبار من الدنيا، وإقبال من الآخرة، فبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حتى أتاه اليقين. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإن في التقوى تكفير السيئات، وتضعيف الحسنات، وفوز بالجنة، ونجاة من النار. وأحذركم يوماً تشخص فيه الأبصار، وتبلى فيه الأسرار، يوم البعث، ويوم التغابن، ويوم التلاق، ويوم التناد، ويوم الآزفة: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨] ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]

عباد الله : إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدى، حصنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة، فقد جاء في الخبر : أن النبي ﷺ قال : «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، ولا صلاة لمن لا زكاة له» أمه (١).

وقال الله - تعالى - : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وقال الله - تعالى - : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]. أمه (٢).

◻ تم الكتاب والحمد لله رب العالمين ◻

(١) انظر : صفوة الصفوة لابن الجوزي ج٤/ ٢٥٦-٢٥٧، وصبر اعلام النبلاء للذهبي ج٧/ ١١٧-١١٨، والبداية والنهاية لابن كثير ج١٠/ ١٢٢.

(٢) رواه أنس - رضي الله عنه - : انظر : صحيح الجامع الصغير ج٢/ ١٢٠٥ : الحديث رقم ٧١٧٩.

(٢) انظر : العقد الفريد لابن عبد ربه ج٢/ ١٠٢-١٠٤.



الخاتمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف النبيين والمرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* أما بعد :

- فقد تمّ والله الحمد والشكر تأليف كتاب :

وصايا ومواظب

في ضوء الكتاب والسنة

- أسأل الله أن يتفجع به المسلمين والمسلمات .

- وصلّ اللهم على سيدنا «محمد» وعلى آله وصحبه أجمعين .

- اللهم اغفر لي ولوالدي ولجميع المسلمين آمين .

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

المؤلف

أ.د / محمد محمد محمد سالم محيسن

غفر الله له ولوالديه وذريته والمسلمين

المدينة المنورة، الثلاثاء أول رمضان ١٤٠١ هـ

أول يولية ١٤٠١ م

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
٧	منهج التأليف
٩	الموضوع الأول: الوصايا الربانية والنبوة
١٣	الموضوع الثاني: وصايا الصحابة - رضى الله عنهم -
١٩	الموضوع الثالث: وصايا العصر الجاهلى
٢٨	الموضوع الرابع: وصايا العصر الأموى
٤٢	الموضوع الخامس: وصايا العصر العباسى
٤٩	الموضوع السادس: مواعظ مفيدة
٦٢	الموضوع السابع: الأسباب المباشرة التى قوّت الحركة الوعظية
٦٤	الموضوع الثامن: أفاض الوعظ فى مجالس الخلفاء
٧٦	الموضوع التاسع: أنواع التعازى
٨٧	الموضوع العاشر: موضوعات التعازى
٩٨	الموضوع الحادى عشر: تعازى العصر الجاهلى
٩٩	الموضوع الثانى عشر: تعازى عصر صدر الإسلام
١٠٢	الموضوع الثالث عشر: تعازى العصر الأموى
١٠٥	الموضوع الرابع عشر: تعازى العصر العباسى
١٠٧	الموضوع الخامس عشر: مواعظ متعدّدة
١١١	الموضوع السادس عشر: مواعظ العصر العباسى
١١٤	الموضوع السابع عشر: خطب النبى - صلى الله عليه وسلم -
١٢١	الموضوع التاسع عشر: خطب صدر الإسلام
١٢٤	الموضوع العشرون: خطب العصر الأموى
١٢٦	الموضوع الواحد والعشرون: خطب العصر العباسى
١٢٧	الخاتمة

شيوخ المؤلف

حفظ المؤلف القرآن، وجوّده، وتلقى علوم القرآن، والقراءات، والعلوم الشرعية والعربية، عن خيرة علماء عصره.

وهي:

- حفظ القرآن الكريم على الشيخ: محمد السيد عزّب.
- جود القرآن الكريم على كل من الشيخ: محمد محمود، والشيخ: محمود بكر.
- أخذ القراءات علمياً عن كل من الشيخ: عبد الفتاح القاضي، والشيخ: محمود دعيبس.
- أخذ القراءات عملياً وتطبيقياً عن الشيخ: عامر السيد عثمان.
- أخذ رسم القرآن وضبطه عن الشيخ: أحمد أبو زيت حار.
- أخذ عدّة آي القرآن عن الشيخ: محمود دعيبس.
- أخذ توجيه القراءات عن الشيخ: محمود دعيبس.
- أخذ الفقه الإسلامي عن كل من الشيخ: أحمد عبد الرحيم، والشيخ: محمود عبد الدايم.
- أخذ أصول الفقه عن الشيخ: يس سويلم.
- أخذ التوحيد عن الشيخ: عبد العزيز عبيد.
- أخذ المنطق عن الشيخ: صالح محمد شرف.
- أخذ تاريخ التشريع الإسلامي عن الشيخ: أنيس عبادة.
- أخذ التفسير عن كل من الشيخ: خميس محمد هنية، والشيخ: كامل محمد حسن.
- أخذ الحديث وعلومه عن الشيخ: محمود عبد الغفار.
- أخذ دراسة الكتب الإسلامية عن الشيخ: محمد الغزالي.
- أخذ النحو والصرف عن كل من الشيخ: خميس محمد هنية، والشيخ: محمود حبيلص، والشيخ: محمود مكاوي.
- أخذ علوم البلاغة عن كل من الشيخ: محمود دعيبس، والشيخ: محمد بحيري.
- أخذ فقه اللغة عن الدكتور حسن طاطا.
- أخذ أصول اللغة عن الدكتور حسن السيد عون.
- أخذ مناهج البحث العلمي عن الدكتور عبد المجيد عابدين.
- أشرف عليه في رسالة الماجستير الدكتور أحمد مكي الأنصاري.
- أشرف عليه في رسالة الدكتوراه الدكتور عبد المجيد عابدين، أكرمه الله.

المؤلف

- ولد بقرية الروضة، مركز فاقوس، محافظة الشرقية بمصر، سنة ١٩٢٩ ميلادية.
- حفظ القرآن الكريم، وجوّده في بداية حياته.
- التحق بالازهر الشريف بالقاهرة، ودرس: العلوم الشرعية، والإسلامية، والعربية، والقراءات القرآنية المتواترة: السبع والعشر، والعلوم المتصلة بالقرآن الكريم مثل: رسم القرآن، وضبط القرآن، وعدّ آى القرآن.
- حصل على: التخصص في القراءات، وعلوم القرآن، والليسانس في الدراسات الإسلامية والعربية، والماجستير في الآداب العربية، والدكتوراه في الآداب العربية.
- النشاط العلمي العملى:
- أولاً: عيّن مدرساً بالازهر عام ١٩٥٢م، وقام بتدريس: تجويد القرآن الكريم، القراءات القرآنية، وتوجيهها، الفقه الإسلامى: العبادات، تاريخ التشريع الإسلامى، تفسير القرآن الكريم، علوم القرآن الكريم، طبقات المفسرين، ومناهجهم، النحو العربى، تصريف الاسماء والأفعال، البلاغة العربية.
- ثانياً: عين عضواً بلجنة تصحيح المصاحف بالازهر سنة ١٩٥٦م.
- ثالثاً: عين عضواً ضمن اللجنة العلمية التى تشرف على تسجيل القرآن الكريم بالإذاعة المصرية سنة ١٩٦٥م.
- رابعاً: ناقش وأشرف على أكثر من مائة رسالة علمية (ماجستير، ودكتوراه).
- خامساً: شارك فى ترقية عدد من الاساتذة إلى استاذ مساعد، واستاذ.
- سادساً: له احاديث دينية بالإذاعة السودانية تزيد على مائة حديث.
- سابعاً: له احاديث دينية أسبوعية بإذاعة القرآن الكريم بالمملكة العربية السعودية تزيد على ألف حديث.
- ثامناً: انتدب للتدريس بالسودان بجامعة الخرطوم والجامعة الإسلامية بام درمان، وبالمملكة العربية السعودية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض وأبها، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

الإنتاج العلمى:

بعون من الله - تعالى - صنف أكثر من تسعين كتاباً فى جوانب متعددة:

١ - القراءات والتجويد .

٢ - التفسير وعلوم القرآن .

٣ - الفقه الإسلامى والعبادات .

٤ - المعاملات .

٥ - الإسلاميات والفتاوى .

٦ - السيرة .

٧ - النحو والصرف .

٨ - اللغويات .

٩ - الغيبيات والماثورات .

١٠ - الدعوة .

١١ - التراجم .

مذهبه الفقهي : الشافعى .

عقيدته : اهل السنة والجماعة .

منهجه فى الحياة : كان منهجه فى الحياة التمسك بالكتاب والسنة ما استطاع لذلك سبيلا .

توفى : يوم السبت الموافق : الحادى عشر من صفر ١٤٢٢ هـ - الخامس من مايو ٢٠٠١ م .

دعاؤه : اللهم إنى أسألك رضاك والجنة وأعوذ بك من سخطك والنار .

وصلّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

مصنعات المؤلف

القراءات والتجويد:

- ١ - إرشاد الطالبين إلى ضبط الكتاب المبين.
- ٢ - الإرشادات الجلية في القراءات السبع من طريق الشاطبية «ثلاثة أجزاء».
- ٣ - الإفصاح عما زادت الدرة على الشاطبية «جزءان».
- ٤ - التذكرة في القراءات الثلاث وتوجيهاتها من طريق الدرة «جزءان».
- ٥ - التبصرة عما زادت الدرة على الشاطبية والدرة.
- ٦ - التوضيحات الجلية - شرح المنظومة السخاوية.
- ٧ - التوضيحات الجلية في القراءات السبع وتوجيهاتها من طريق الشاطبية.
- ٨ - الرائد في تجويد القرآن.
- ٩ - الرسالة البهية في قراءة أبي عمر الدوري.
- ١٠ - الفتح الرباني في علاقة القراءات بالرسم العثماني.
- ١١ - القراءات وأثرها في علوم العربية «جزءان».
- ١٢ - القول السديد في الدفاع عن قراءات القرآن المجيد في ضوء الكتاب والسنة.
- ١٣ - الكامل في القراءات العشر المتواترة من طريق الشاطبية والدرة.
- ١٤ - المبسوط في القراءات الشاذة «جزءان».
- ١٥ - المجتبى في تخريج قراءة أبي عمر الدوري.
- ١٦ - المختار - شرح الشاطبية في القراءات السبع مع توجيه القراءات.
- ١٧ - المستنير في تخريج القراءات من حيث اللغة، والإعراب، والتفسير «ثلاثة أجزاء».
- ١٨ - المصباح في القراءات السبع وتوجيهها من طريق الشاطبية.
- ١٩ - المغنى في توجيه القراءات العشر المتواترة «ثلاثة أجزاء».
- ٢٠ - المذهب في القراءات العشر وتوجيهها من طريق طيبة النشر «جزءان».
- ٢١ - النجوم الزاهرة في القراءات العشر المتواترة وتوجيهها من طريق الشاطبية والدرة.
- ٢٢ - الهادي - شرح طيبة النشر في القراءات العشر والكشف عن علل القراءات وتوجيهها «ثلاثة أجزاء».
- ٢٣ - الأشباه والنظائر في توجيه القراءات.
- ٢٤ - تهذيب إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر..
- ٢٥ - شرح تحفة الأطفال والجزرية لبيان الأحكام التجويدية.
- ٢٦ - شرح المنظومة السخاوية في متشابهات القراءات القرآنية.
- ٢٧ - شرح طيبة النشر في القراءات العشر.
- ٢٨ - في رحاب القراءات.
- ٢٩ - مرشد المرشد إلى علم التجويد.
- ٣٠ - القراءات السبع الميسرة.

التفسير وعلوم القرآن :

- ١ - الهادى إلى تفسير غريب القرآن.
- ٢ - إعجاز القرآن.
- ٣ - إعجاز وبلاغة القرآن.
- ٤ - أعلام حفاظ القرآن الكريم (سلسلة أحاديث).
- ٥ - البرهان فى إعجاز وبلاغة القرآن.
- ٦ - الروايات الصحيحة فى أسباب النزول والناسخ والمنسوخ.
- ٧ - الكشف عن أسرار ترتيب القرآن.
- ٨ - اللؤلؤ المنثور فى تفسير القرآن بالمأثور « ستة أجزاء ».
- ٩ - تاريخ القرآن.
- ١٠ - روائع البيان فى إعجاز القرآن.
- ١١ - طبقات المفسرين ومناهجهم.
- ١٢ - فتح الرحمن الرحيم فى تفسير القرآن الكريم (أربعة عشر جزءاً).
- ١٣ - فتح الملك المنان فى علوم القرآن « ثلاثة أجزاء ».
- ١٤ - فتح الرحمن فى أسباب نزول القرآن.
- ١٥ - فضل قراءة بعض آيات وسور من القرآن مؤيداً بسنة النبى ﷺ.
- ١٦ - فى رحاب القرآن الكريم « جزءان ».
- ١٧ - فى رياض القرآن (سلسلة أحاديث).
- ١٨ - معجم حفاظ القرآن الكريم عبر التاريخ « جزءان ».
- ١٩ - معجم علوم القرآن « ثلاثة أجزاء ».
- ٢٠ - من وصايا القرآن الكريم.

فقه وعبادات :

- ١ - أثر العبادات فى تربية المسلم.
- ٢ - أحكام الطهارة والصلاة فى ضوء الكتاب والسنة « جزءان ».
- ٣ - الإرشادات إلى أعمال الطاعات.
- ٤ - الترغيب فى الأعمال المشروعة فى ضوء الكتاب والسنة.
- ٥ - الحج والعمرة وأثرهما فى تربية المسلم وأحكام قصر الصلاة وجمعها فى السفر.
- ٦ - الحدود فى الإسلام فى ضوء الكتاب والسنة والكشف عن حكمة التشريع الإسلامى من إقامتها.
- ٧ - الصلاة فى ضوء الكتاب والسنة وأثرها فى تربية المسلم.
- ٨ - الصيام أحكامه وآدابه وفضائله وأثره فى تربية المسلم.
- ٩ - فقه الكتاب والسنة.
- ١٠ - العبادات وأثرها فى تربية المسلم فى ضوء الكتاب والسنة.
- ١١ - الفضائل من الأعمال التى تقرب من الله تعالى.
- ١٢ - المحرمات فى ضوء الكتاب والسنة.
- ١٣ - تأملات فى أثر العبادات، وأعمال الطاعات فى تربية المسلمين والمسلمات.
- ١٤ - أركان الإسلام.

معاملات :

- ١ - الأسرة السعيدة في ظل تعاليم الإسلام.
- ٢ - الحق أحق أن يتبع.
- ٣ - حقوق الإنسان في الإسلام.
- ٤ - حكمة التشريع الإسلامي.
- ٥ - نظام الأسرة في الإسلام.

تراجم :

- ١ - أبو عبيد القاسم بن سلام، حياته وأثاره اللغوية.
- ٢ - أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، حياته وأثاره.
- ٣ - تراجم لبعض علماء القراءات.

إسلاميات وفتاوى :

- ١ - أنت تسأل والإسلام يجيب.
- ٢ - الثقافة الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة.
- ٣ - السراج المنير في الثقافة الإسلامية.
- ٤ - في رحاب الإسلام.

سيرة :

- ١ - الأنوار الساطعة على دلائل نبوة سيدنا محمد ﷺ، وأخلاقه الكريمة الفاضلة في ضوء الكتاب والسنة.
- ٢ - الخصائص المحمدية والمعجزات النبوية في ضوء الكتاب والسنة.

نحو وصرف :

- ١ - النحو المبسّر.
- ٢ - تصريف الأفعال والأسماء (في ضوء أساليب القرآن).
- ٣ - توضيح النحو.
- ٤ - معجم قواعد النحو، وحروف المعاني.

الغويات :

- ١ - أحكام الوقف والوصل في العربية.
- ٢ - الكشف عن أحكام الوقف والوصل في العربية.
- ٣ - المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية « ثلاثة أجزاء ».

الغيبيات والمأثورات :

- ١ - حديث الروح في ضوء الكتاب والسنة.
- ٢ - الأدعية المأثورة عن الهادي البشير عليه السلام.
- ٣ - النصرة في أحوال القبور، والدار الآخرة.
- ٤ - الدعاء المستجاب في ضوء الكتاب والسنة.
- ٥ - موضوعات إسلامية في ضوء الكتاب والسنة « جزءان ».

الدعوة :

- ١ - أحاديث دينية وثقافية في ضوء الكتاب والسنة.
- ٢ - الترغيب والتحذير في ضوء الكتاب والسنة.
- ٣ - الدعوة إلى وجوب التمسك بتعاليم الإسلام.
- ٤ - ديوان خطب الجمعة وفقا لتعاليم الإسلام.
- ٥ - سبيل الرشاد في ضوء الكتاب والسنة.
- ٦ - في رحاب السنة المطهرة، سراج لكل واعظ ومرشد وخطيب.
- ٧ - منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله.
- ٨ - وصايا ومواعظ في ضوء الكتاب والسنة.

التحقيق والتصحيح :

- ١ - النشر في القراءات العشر لابن الجزري (تحقيق).
- ٢ - شرح الطيبة لابن الناظم (تحقيق).
- ٣ - المعنى لابن قدامة (تحقيق).
- ٤ - حاشية العلامة الصبان على تفسير الجلالين (٤ أجزاء) (تصحيح).
- ٥ - نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار (تصحيح).
- ٦ - إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى عليه السلام وفضائل أهل بيته الطاهرين (تصحيح).

كلمة الناشر

اقرأ

الحمد لله الذى أضاء بها الكون، فقال - تعالى - :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ (٥) ﴾

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد ﷺ القائل :

«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»

ويعد ...

فإن خير الأعمال وأجلها عمل يصل الإنسان بربه، فينال به الرضا والفرح، كما قال

- عز وجل - : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

وانطلاقاً من هذا الوعد كانت «دار محيسن للطباعة والنشر والتوزيع،

براً بصاحب هذا الاسم - رحمه الله تعالى - .

قال ﷺ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية،

وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له».

● **هدفنا** أن نصل إلى عقل وقلب ووجدان القارئ المسلم.

● أن نساهم في نشر العلوم الدينية بصورة مشرقة.

● أن نساعد في إعداد أجيال مسلمة تتفهم حقيقة دينها.

● أن نتابع نشر مؤلفات الأستاذ الدكتور محمد سالم محيسن - رحمه الله - .

وسيلتنا استخدام التقنيات الحديثة في الطباعة والنشر.



هذه أهدافنا، وهذا طريقنا، والاستمرار والانتشار سيكونان

بفضل الله - تعالى - ثم بفضلك أيها القارئ العزيز.



وَصَايَا وَمَوَاعِظُ

فِي ضَوْءِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

بإيف الاستاذ الدكتور

محمد بن محمد بن الحسين

تخصص في التفسير وعلوم القرآن
عضو لجنة مراجعة المصنفين بالجامعة الإسلامية
دكتوراه في الآداب العربية

دار محاسن

للطباعة والنشر والتوزيع